سلسلة إحياء التراث العربي

جبران خليل جبران

١٠

الأعمال الكاملة

النَّبي

شريف نبيل

رَاجعهُ وَضبط مُدخلهُ

إبراهيم صقر

دار العلم والمعرفة

مكتبة مصر

النبـــي

سلسلة إحياء التراث العربي

جبران خليل جبران



تقديم

كرم الدكروري

راجعه وضبط مدخله

أ/ إبراهيم محمد صقر

الناشر

دار العلم والمعرفة

اسم الكتاب: النبي
تأليف: جبران خليل جبران
القطع: ١٤ × ٢٠
عدد الصفحات: ١٨٤ صفحة
سنة الطبع: ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م (طبعة جديدة منقحة)
الناشر: دار العلم والمعرفة
طباعة: دار مصر للطباعة - القاهرة

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية - مصر
٢٢١٥٨/ ٢٠١٠
الترقيم الدولي: 977-11-1624-1

٢٠ ش عبد المنعم رياض - من ش حسني مبارك
زهراء مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١٢٣٨٨٨٩٣٠ - ٠١١٣٣٣١٢٣٨
E-mail: almmarfa@yahoo.com
almmarfa@gmail.com

عبلين - الجليل - فلسطين
جوال: ٠٥٢٣٠٧٧٣٣٤ (٠٠٩٧٢)
٠٥٢٨٥٠٢٨٢٦ (٠٠٩٧٢)
فاكس: ٠٤٩٥٠٢٤٧٢ (٠٠٩٧٢)



تقــديم

رفَض المطارنْة الاشتراكَ في مراسِم استقبَالِ جُثمان جُبران خليـل جبران، في عام ١٩٣١م لُيدفنَ -بِنَـاء عـلَى وَصيّته- في بلـدة بـشرّي شَمال لُبنان. بَعد نَقل جُثمانـه عَـبْر البحـرِ، مِـن أمريكَـا، لأَنّـه «كَـافرٌ وُمهرْطِق»، بِزَعم هُجُومه علَى الكهنة.

وقبلَها رَفـضَ كـاهنُ الكنيـسةِ المارُونيّـةِ في نيويـورك أنْ يُعطـيَ تصريحًا لِكَاهِن الكَنيـسةِ المارُونيّة في بوسـطن بالـصَّلاة عـلى جُثمانِ جُبران لأنَّه -أي الكـاهنُ- زَار جُـبران في المُستـشفى، «وعـرفَ مِـن الراهبةِ أنه رفضَ الاعترافَ بأنّه كَاثوليكيّ».

خشِيت فَرنسا التي كَانت تُسيطرُ عَـلى مقَاليـدِ لُبنَـان أنْ يَـضعَها رِجالُ الدينِ المَسيحيّ في حَرَج بَـالغ أَمَـامَ العَـالم بعَـدَم الـصّلاة عَـلى جُثمان الفَيلسوفِ والأَديبِ، والرسَّام الـذي بَهـرَتْ كِتَاباتُـه الغَـربَ، واعتبرتْه جَريدةُ «النيُويورك هيرالد»:

«نَابِغة الملاَيينِ الذينَ يتكلَّمون العَربيَّة في الشَرق».

تدخّلَ سِكرتيرُ المطبُوعاتِ التَابعُ للمندوبِ الفَرنـسيّ، بِمُـساعدةِ

آخرينَ وشكّلوا وفْـدًا وذَهبـوا إلى مقـرّ البَطريـركِ المَـارونيّ، إليـاس الحُويك، لإقناعِه بِالعُدولِ عَن مُوقفِه، واستَعانَ أَحدُ المطَارنةِ بِكلماتٍ لجُبرانَ ليثبتَ بها صِحّة مَوقفِهم الرَّافِض له تقول:

«في لُبنان، ذلك الجبل الغنيّ بِنور الشمسِ، الفَقيرُ إلى نُور المعْرفَة، قد اتّحدَ الشَريفُ -يَقصِدُ الإقطـاعيّ- والكَـاهنُ عـلى إبَـادةِ الفَـلّاح المسكين، الذي يَأكُلُ خبزَه بِعرق جَبينِه، كيما يَحمِي جَسدَه مِـن سَـيفِ الأَولِ، ويَحمِي روحَه مِن لعْنَة الثّانِي».

وتَابعَ المطَارنةُ: هَل يُعقلُ أن نُكرمَ ونستقبلَ مَن له هذا الـرّأي في الكَهنة؟

فأجَابَ أحدُ أعْضَاءِ الوفد المُدافع عن جُبران:

«إنّ كُتبه تُقرأ في كَنائسِ أمرِيكا، فَهل يُعقل أن يكـونَ كَـافِرًا مَـن يَقولُ مُخاطبًا السيدَ المسِيحَ في كِتَابه «يسوع ابن الإنسان»:

«وأنتَ أيهـا الجبّـارُ المـصلوبُ، النَـاظرُ مِـن أَعَـالي الجَلْجَلـة إلى مُواكبِ الأَجيالِ، السَامعُ ضَـجيجَ الأُمـمِ الفَـاهمُ أَحـلامَ الأَبديّـةِ... أنتَ عَلى خَشَبة الصّليب المضرّجَة بِالدّمَاء، أَكثـرُ جَـلالاً ومهابـةً مِـن أَلْفِ مِلِك علىَ ألفِ عَـرْش، في أَلْـفِ مملكـة... بـلْ أنـتَ بَـين النـزعِ

والموتِ، أشدُ هَؤلاءِ قوّةً وبَطشًا مِن أَلفِ قَائِدٍ وأَلـفِ جَيش، وألـف معرَكة... أَنـتَ بِكآبتِـك أَجمـلُ مِـن الرّبيع بِأزهَـاره، بَـلْ أنـتَ بـينَ الجَلّادِين أكثرُ حُريةً مِن نُورِ الشَمسِ.. إنّ إكليلَ الشّوكِ عَلى رأَسِـكَ، هوَ أجلّ وأجملُ مِن تَاج بهرام، والمسمارُ في كفّك أثمَـنُ مِـن صَـولجان المـشترَى، وقطـراتُ الـدّماءِ عـلى قَـدَميك أسْـنى لمعانًـا مِـن قَلائِـدِ عشتروت».

تَأثّر البَطريركُ وبَكى. وقَـالَ آمـرًا الكَهنـة: «انْزلـوا إلىَ بَـيروت، واستقبلوا جُثمان جُبران، فهو أكثرُ تَدّينًا مِنّا».

استَقبَلَ جُثمان جُـبران نحـو ١٦٠ كَاهِنًـا في مَـأتمٍ جَلَـلٍ شَـهدتْه كَاتِدرائيةِ القدّيس جِرجِس في بيروت.

فَشَلَ الثّرى في أنْ يقبُرَ «عواصفَ» جُبران، وعاشتْ فَلسفتُه لتَثيرَ غَـضبَ مُعظـم رِجَـالِ الـدّين –مَـسيحيين ومُـسلمين– وحَنـاجرَ المُتشدّدين وسخَطَ المقلّدين ممّن صَدَأتْ أَروَاحُهم وأُغلقتْ عُقـولُهم. وسَيظلُّ جُبران نَاقوسًا مُزْعِجًا مَـا بقـيَ الـشَرقُ جَسدًا تَنهشُه عِلـلُ البَلاَدة، وأهلُه يتلذّذُون ركوعهم مِن المهْد إلىَ اللّحدِ أمَـامَ طَـواغِيتِهم ومَا أَلفَوْا عَليه آباءَهم، دُونَ أنْ يَتأملُوا الحَياةَ ويُعِيدوا مَعرفةَ أَنّفسِهم بِوعْيٍ وَفكْر طَلِيق.

جُبران خليل جبران

١٨٨٣م-١٩٣١م

حياتُـــه وآثـــارُه

مولده.. نشأته.. سفره

وُلد جُبران في بَلدة بشرّي المتّكئةِ عَلى كَتِف وَادي قاديشا، في ظِلالِ الأَرْز حَيثُ تتَفجرُ الأَرضُ مَاءً وخُضرةً وزهرًا، والثُلوجُ تعمّم الجِبالَ مُعظمَ فُصولِ السنة، وكَانت وِلادتُه صَباحَ السَادسِ مِن كَانُون الثاني (يناير) سنة ١٨٨٣م، في كَنَفِ عائلةٍ قليلةِ الموارِدِ مؤلّفة مِن الأب خليل، والأم كامِلة رحمة التي كَان لها مِن زَواج سَابق ولدٌ اسمُه بُطرس، ورُزقت مِن زَواجها مِن خليل جُبران ثلاثةَ أَولاَد: جُبران أكبرهُم، وأُختَاه مَريانا وسُلطَانة.

في الخَامسةِ مِن عُمره تَلّقى مَبادئ العَربيّةِ والفَرنسيّة والسِّريانيّة في مَدرسةِ أليشاع «تحت السّنديانة» وتعرّفَ عَلى النَهضةِ الإيطاليةِ مِن جَرّاء تردّده علَى مَركزٍ للرُّهبَان الإِيطَاليين.

أُصيبَ والده بِنكسة ورَاحَ ضَحيةَ تُهمة أودَت بِه إلىَ السّجن، فَلملَمت كَامِلة رحمة نفسَها وسَافَرت مَع أولادها الأربعة: بُطرس، وجُبران، ومريانا وسلطانة إلى أمريكا، سنة ١٨٩٤م.

في بوسطن:

استقرتِ العَائلةُ في الحيّ الصينيّ مِن مَدينةِ بُوسطُن، حَيثَ دَخلَ جُبران مَدرسةً شَعبيةً تَعلّم فِيها أصولَ اللغةِ الإنجليزيّة، وكَانَ له، بِفضلِ مُعلّمته الأمريكية، لِقاء مَع «فريد هولاند» الذي ساعدَه عَلَى دِراسةِ تِقنيةِ الرسْمِ ومكّنه مِنْ مُواصَلة تَعلّم الإنجليزية.

وبَعد ثَلاث سَنوات مِن العَملِ والكَدّ، استَطاع أَفرادُ أسرتِه أن يَجمعُوا مِقدارًا مِنَ المَال مَكّنهم مِن إرسَال جُبران إلى بَيروتَ ليدرُسَ اللغَةَ العَربيةَ والفَرنسيّة، لأَنهم تَوسّموا فِيهِ الرجلَ النَابغةَ الذي سَيكون له مُستقبلٌ بَاهر، ومكانةٌ سامِقة، في عَالم الفِكر.

بيروت: مدرسة الحكمة:

في بَيروتَ التحَقَ بِمدرسة «الحِكمة» وطُوال ثَلاثة أعَوام اسْتَطاعَ أن يُوسّعَ مَعرفتَه باللّغة العَربيّة، وتتفتَحَ له، بفضلِها، آفاقٌ جَديدة، وكانَ له رُفقاءُ وطّد معرفتَه بهم، ومِنهم النحّات يوسُف الحويك الذي سيكونُ لَهُ شَأنٌ كَبير في حيَاة جُبران. وكَان مُعلّمه في اللُغَة العَربيّة الخوري يوسُف الحدّاد الذي استَقَى جُبران مِنهُ اللُغَةَ مِن مُورِدهَا العَذْب، فَأجادَهَا وأَبْدعَ فِيهَا.

العودة إلى بوسطن: تجربة الموت:

وفي عام ١٨٩٩م، عامَ عَودته إلى بُوسطن بَدأَ في مُزاوَلـةِ الرّسْـم والكتَابةِ، لَكنّ الفَواجِعَ العَائلية تَوّالت عَليهِ فَأوقَفتهُ مُرغَمًا أمَام تَجرُبة الموتِ، وذَلك عِندَما مَاتت أُختُه الصُغْرَى سُلطَانة بِمرض السّل عَـام ١٩٠٢م، ولِحقَ بها أخوه بُطرس، ثُمَّ أمّه، في السنةِ التَاليـة، وبـالمَرض عينهِ، فَاستوْلى الحُزنُ واليَأسُ عَليه، وَعبّر عَن ضَراوة ألمـه بِقولـه بَعـد مَوتِ أمّه: «فَقدتُ يَنبوعَ الحُنوّ والرَأفَةِ والغُفْرَانِ والصّدرَ الذي أسـندُ إِليه رَأسي، واليَد التي تُبَارِكني وتَحرُسني».

إلاَّ أنّ هَذهِ الفَواجِعَ لم تهدّ عَزيمَةَ جُبران، بـلْ وجـدَ فِيهَـا حَـافزًا للانطِلاقِ مِن جَديدٍ في عَـالمِ الفَـنّ، واستطَاع سَـنة ١٩٠٤م أنْ يُقـيمَ مَعرِضًا لرسُومه الرّمزيّة، تَعرّفَ خِلاله إلىَ سَيدةٍ أمريكية تُدعىَ «ماري هاسكل»، وعَلَى جَانب مِنَ الثّراء، فَقـد أُعجِبـتْ بِرسـومِه وأَظهـرتْ إِعجابهَا بها، ودَعتْه إلى عرْضِها في المدرسةِ التِي كَانت تديرُها.

وقدْ كَان لماري هَاسكل هَـذهِ دَورُهَـا الحَاسـمُ في تَوجِيهـه الأَدبيّ والفَنيّ. فَقدْ مَنحت الفَنانَ النَاشئَ رِعَايتَها ومُسَاعدتَها فأكَـبّ يَرسُـم ويكتُب، وَينطلِق، وبِالتَـالي، في عَـالم الـشُهرة، وشِـعارهُ: «لا أريـدُ أن أكتُبَ اسمي بِماء عَلَى سِفْر الوجود، بَل بِأحرفٍ مِن نَار».

وفي العَام نفسه، ١٩٠٤م التَقى جُبران أمين الغريب صَاحبَ جَريدة «المُهاجَر» فأُعجِبَ هَذا الأَخيرُ إعجَابًا شَديدًا بِخَواطِرِ جُبران ورُسُومِه. وعَرضَ أن يَنشرهَا في جَريدَتـه، وفي آذار (مارس) مِنَ السّنَةِ نَفسِها ظَهرَ أولُ مَقَال لجُبران عِنوانُه: «رُؤيَا» وكَان لَهُ صَدَاهُ الواسِعُ والعَمِيقُ والبَليغُ لَدَى القُراءِ مِنْ حَيثُ طَرَافَةِ النّهج والإبدَاعِ في الخَيَالِ.

هَذهِ الانطلاَقةُ شَجعتْه عَلَى أنْ يجمعَ مَا كَانَ ينشُره في الصّحف مِن مقَالاتٍ وأقَاصِيصَ في ثَلاثةِ كُتُبٍ نَشرَها عَلَى التوَالي خِلالَ أَربَع سَنوات وَهيَ: المُوسيقى (١٩٠٥م)، وعَرائِس المُرُوج (١٩٠٦م)، والأَروَاح المُتمَردَة (١٩٠٨م).

باريس: تجربة فنية لامعة:

وكانَ جُبران أبدَى لماري هاسكل رَغبَتَه في تَعلُّم أصولِ الرّسمِ في بَاريسَ، فَلم تَقفْ ماري حَائِلاً دُونَ تحقيقِ رَغبتهِ، إذْ لم تَكُن تَضِنَّ عَليهِ بالمُسَاعَدة الماديّة. كَما لم تكُن تَضِنّ عَليـهِ بِحنَانِها، فلّبت رغبته وأرسَلتهُ إلى باريس عام ١٩٠٨م.

وفي باريسَ أقَامَ سَنتين يختلفُ إلى مَدرسَة «الفنُون الجَميلة» ويَتلقىَ دُروسَ «أكَادِيمية جُوليَان» التي لم يَطُلْ بِهِ الوَقتُ حَتى تَركَها

لُيمَارِسَ الرسّمَ الحُرَّ في مُحترف اسْتَأجَرَه هُو وصَدِيقُه النّحَات يُوسف الحويك. وكَانت هَذهِ المَرحَلةُ مِنْ حَيَاتِه محطّةً بَـارِزة فَتحت لَهُ آفَاقًا جَديدة. ولم يَنسَ «لُبنانه» فظلَّ يحِنّ إليهِ ويَتَذكّره شَمسًا طَالِعةً مِن وَرَاءِ صَنين، أو جَانِحةً إلى الغُروب. وطلولاً وأوديةً يَنسَاب مِنها السّحْر انسِيابَ العِطر مِن الزهْر الفوّاح. أمَا الكسْبُ الرَفيعُ الذي نَالهُ في بَاريس والذي ملأهُ عِزّة وفَخرًا. وهُوَ أنَّ الجَمعيةَ الوطنية للفنون الجَميلة، في بَاريس، اختَارت إحدَى لَوْحَاته مِنْ بَين تِلكَ التي عَرضَها في المَعرِض الذي أقَامته. فَلا تَسلْ، إذ ذَاك، عَن نَشوة الفَنانِ التي تَفُوق كُلّ وَصْف.

إلى بوسطن فنيويورك:

عَام ١٩١٠م عَادَ إلىَ بُوسطن، وانتقلَ عَام ١٩١١م إلى نيويورك بإلحَاح مِن أَمِين الريحانيّ الذي التقَاهُ في بَاريس، فَاستَأجرَ غُرفةً في غرينتش، حَيّ الفَنانِين في تِلكَ المَدينَة، ونشر في السنة ١٩١٢م «الأجنحة المتكسرة» وهِيَ قصّة جَمع جُبران بَينَ دِفتَيها أصْدَاءَ خَفقَاتِ قَلبِه حَتى تعرّف، أثنَاء إقَامَته بَينَ بيرون وبشرّي إلى حلا الضاهر، وأَهْدَى هَذَا الكِتابَ عَربونَ وَفاءٍ إلى ماري هاسكل «التي تحدّق بِالشمسِ بِأجفَانٍ جَامدة، وتَقبضُ عَلَى النَّار بِأصابعَ غَيرِ مُرتَعشة،

وتَسمعُ نَغمةَ الرُوح الكلّي مِن ورَاء ضَجِيج العُميان وصُرَاخِهم».

في سَنة ١٩١٤م جَمعَ في كِتَاب أسمَاه «دمعـة وابتـسامة» مَقَـالاتٍ كَانَ قَد نَشرَها في بَعض المجلّات والصّحُف. وفي الآنَ نَفْـسه، كَانـت ماري هاسكل تُشّجِعُه وتَدْفَعُه عَلَى الكِتَابةِ بِاللغَة الإنجليزية؛ فَأصدَر «المَجْنُون» سنة ١٩١٨م، و«السَابِق» سنة ١٩٢٠م.

وفي اللُّغَـــة العَربيّـــة صَـــدَرَ لَـــهُ «الموكـــب» ســـنة ١٩١٩م، و«العَوَاصِف» سنة ١٩٢٠م، و«البَدَائِع والطَرَائِف» عام ١٩٢٣م.

إبّانَ الحَرب العَالميةِ الأَولىَ، حَلّت الكَارِثة بِلُبنَان فَجوّعت أبنَاءَه وشرّدَتهم وقَضْت عَلَى الآلافِ منهم، فَتنغّص عَيشُ جُبران، وعـبّر في سِلسِلةٍ مِنَ المَقَالاتِ التي نَشرَهَا، عَن هَوْل الفَاجِعةِ وأثرِهَا في نَفـسِهِ، ولم يَكتفِ بالكتابةِ بَلْ سَاهَم مَعَ بَعض إِخْوَانِه الأُدبَـاءِ في إِنْـشَاء لجنَـة إغَاثةِ المَنْكُوبينَ التي استَطَاعت أنْ تُخفّف -بَعضِ الشَيءِ- مِـن وَطـأة المأسَاةِ عَلَى اللُبنَانِيين.

تأسيس الرابطة القلمية:

في هَـذِهِ المرحَلـة توَطّـدت عِلاقَـاتُ جُـبران بِكَثـيرٍ مِـنَ الأُدَبـاءِ اللُبنَانِيين والسُورِيين فِي المهاجَر، فعَقدُوا الاجتمَاعَاتِ الكَثِيرةَ وقَـرّروا

إِنشَاءِ جَمعيةٍ تَنهضُ بِالأدب العَربيّ الرّاكدِ إلىَ المُستوى العَـالميّ. وبَعـدَ أَنْ وَضـعت الحَـربُ أَوْزَارَهَـا، اسْتَمرت الاتـصالاتُ بَـينَ هـؤلاءِ الأُدبَاء، التي انْتَهت بِتَأسِيس «الرَّابِطَـة القَلَميّـة» التـي كَـانَ شِـعَارُهَا انتِشَال الأَدَب العَربيّ «مِنْ وَهدَة الخُمُول والتَقلِيـدَ إلىَ حَيـثُ يُـصبِحُ قُوةً فَعَّالة فِي حَياةِ الأمّة».

تَأسَسَت الرَابِطَـةُ سـنة ١٩٢٠م بِرئَاسَـةِ جُـبران، وكَـانَ سَـائرُ أَعضَائها المؤَسّسِين: ميخائيل نعيمه، نسيب عريـضة، رشـيد أيـوب، ندرة حداد، وليم كستفليس، إيليّا أبو ماضي، ورشيد الباحوط.

غَيرَ أنّ اهتمامَهُ بِأمُور«الرابطـةِ القَلميّـة» لم يَـصْرفْه عَـن الاهـتِمامِ بِنَاجـهِ الشَخـصيّ فَأصـدَر سـنة ١٩٢٣م رَائِعتـه «النَبـيّ» بِاللغَـة الإنـجليزية. قَالَ عَنهُ: «إنّه دِيَانتِي وأقدسُ قُدسيّاتِ حَيَاتي». وقال عنه لماري هاسكل في إِحدَى رَسَائِله: «أُريدُ أنْ أَحيَـا الحَقِيقَـةَ. بَـدَلاً عَـن الكِتَابةِ عَن النَّار. أفضّلُ أنْ أكُونَ جَمْرةً تَتَأجّج، أُرِيدُ أَنْ أَكُـونَ مُعَلـمًا. وبِمَا أنيّ مُستَوحَد أُرِيدُ التَحَدُّث إلىَ جَميع المستوحدين».

مرضـه وموتـه:

ومَعَ أنّ المرَض لازَمَهُ كَطِيفٍ فَقَـضّ عَليـهِ مَضجَعَه، إلاّ أَنّـه مَـا

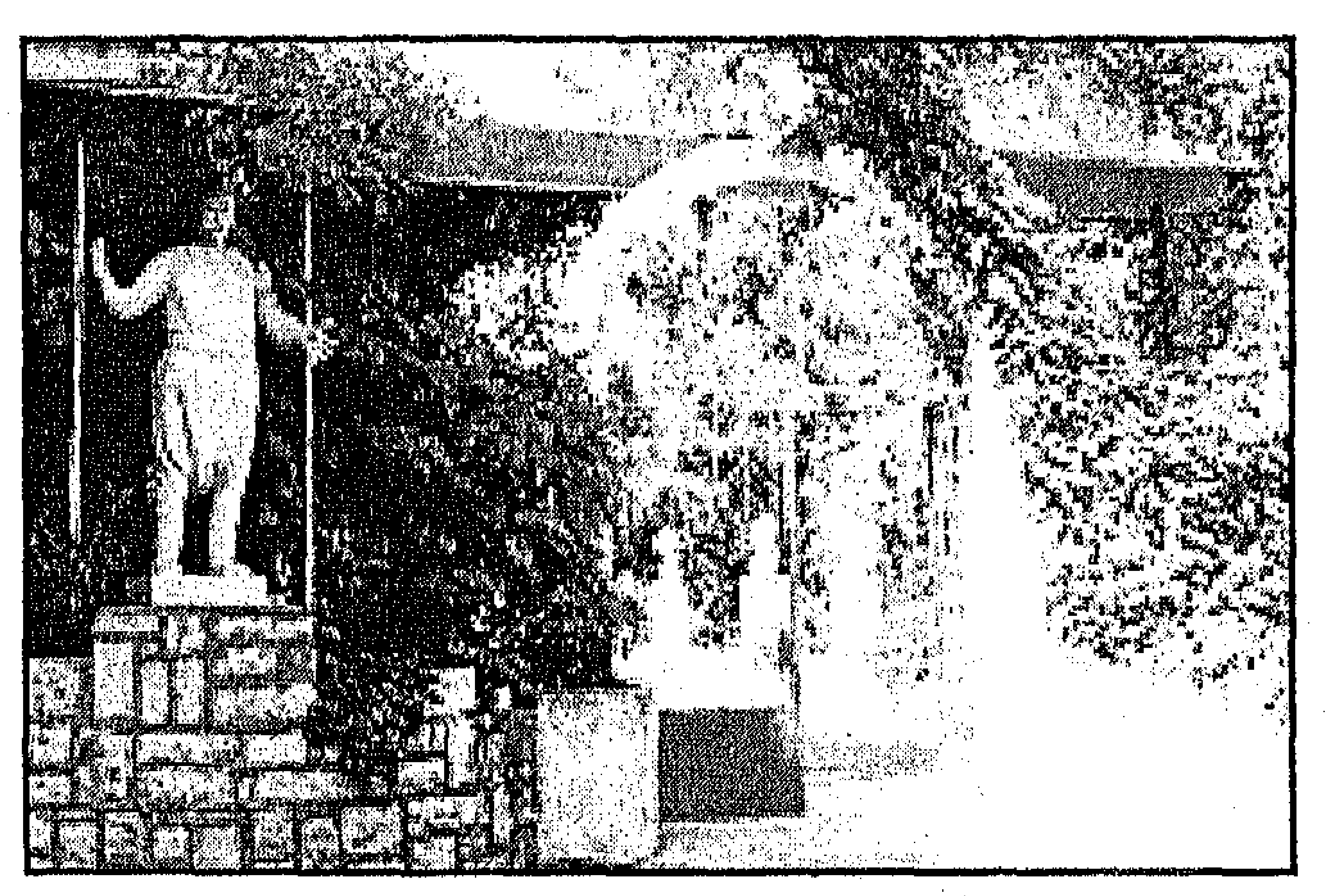
استَسلمَ لمِشِيئةِ القَدَر، فَلم يَنْقَطِعْ يَومًا عَن الرّسْم والكِتابةِ، واستَطَاعَ أنْ يُصدِر عَلَى التَوالي في اللُّغَـة الإنجليزيـة: زَمـل وزَبَـد (١٩٢٦م)، يسوع ابن الإنـسان (١٩٢٨م)، آلهـة الأرض (١٩٣١م سـنة وَفَاتـه) وصَدَر «التَائِه» سنة ١٩٣٢م، أي بَعدَ وَفَاتِه بِسَنةٍ وَاحِـدة. و«حَدِيقَـة النَبيّ» سنة ١٩٣٣م.

لكنّ طَاقةَ جِسْمَه اسْتَنفَذَها جُبران في عَمَلِه المُرهَق، فَلفَظَ أَنْفَاسَه الأَخِيرة في ١٠ من نيسان (أبريل) سنة ١٩٣١م، ونُقل جُثمَانُه صَـيفَ ذَلِكَ العَام إلىَ مَسقَط رَأسَه بشرّي، بِنَاءً عَلَىَ وَصـيّته. وكَانـت رَقدَتُـه الأَخِيرةُ في صَوّمَعةِ دِير مَار سَركِيس المُطّلةِ عَلَى الوادي المُقدّس.

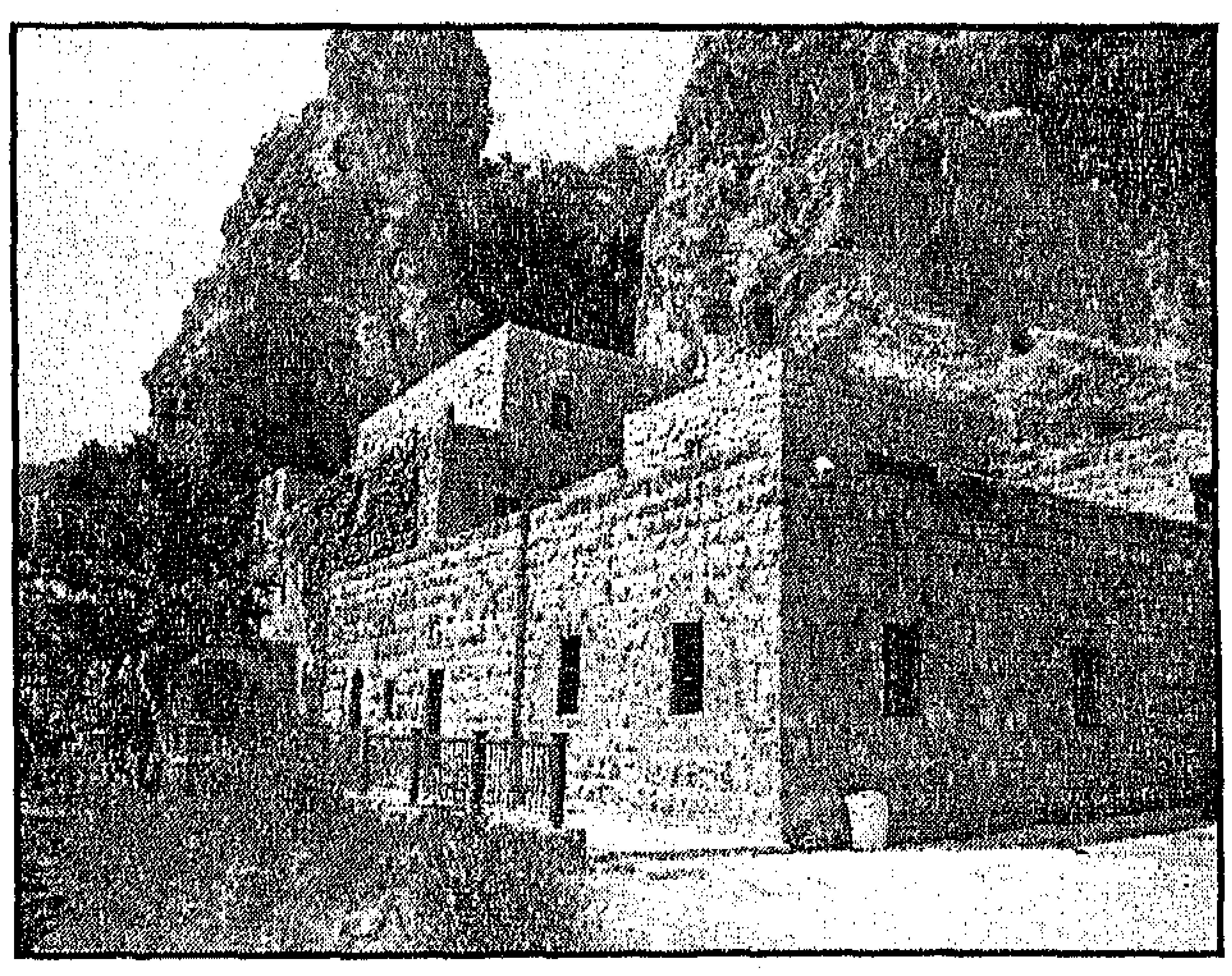
□□□



جبران في مدرسة الحكمة — بيروت



منزل جبران في بشري



قبر جبران ومتحفه في غابة مارسركيس

النَبيّ

The Prophet

تعريف:

صدر كتاب «النبي» -أشهر وأروع ما كتب جبران- سنة ١٩٢٣م بالإنكليزية عن دار كنوف في نيويورك، في غلاف أسود يحمل صورة المصطفى، بطل الكتاب، وفي قطع صغير.

ظهر «النبي» بعد مخاض طويل عَبر فصول متكاملة تُوَجِّهُ أبناء العصر إلى الطريق الصحيحِ، كما في الكتب المقدسة، وقد ضمّ أحد عشر رسمًا جاءت تكمّل فصوله.

اعتقد قُدامى الإغريق والرومان أن للشاعر بصرًا ينفذ إلى ما وراء العالم الظاهر إلى عالم الغيب فيعبّر عن رؤاه ويُعلنها إلى البشر. وكانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى نبيّ. وكان جبران على يقين بأنه انتُدب لأداء رسالة عُلْوِيَّة في خدمة الإنسان التوَّاق إلى استكمال إنسانيَّتِهِ لبلوغ مستوى الألوهية.

انطوى الكتاب على سلسلة أحاديث حول شؤون شتى وسمها جبران بطابع صوفيّ.

المضمون: عرض وتحليل:

في «النبيّ» خلاصة آراء جبران في الحبّ، والزواج، والأولاد، والبيوت، والثياب، والبيع والشراء، والألم والجرائم والعقوبات، والحرية والشرائع، والعطاء والعقل، والهوى والإثم، والصداقة والدين، والموت واللذة والجمال. وقد عبّر عنها بلسان «المصطفى» الذي لا يختلف قطّ عن المؤلف في مفهومه لجميع هذه الأمور.

نزل المصطفى في مدينة «أورفليس» وأقام فيها اثنتى عشرةَ سنةً ينتظر عودة سفينته لتستقلَّه ويعود بها إلى جزيرته، مسقط رأسه.

كان مكوثه في أورفليس كآبة موصولة ووحدة موجعة، فلـمَّا تسلّق الأكمة وأبصر السفينة قادمة مع الضباب، رقص فرحًا لكنه في الوقت عينه، أحسّ بوجع في روحه. لقد عزّ أن يودّع تلك المدينة. إنما الرحيل كان لابدّ منه، فالبحر الذي يدعو الكلّ إليه، دعاه كذلك فأذعن. وحبَّذا لو استطاع أن يرحل معه كلُّ مَنْ في المدينة وما فيها. وهل يستطيع النسر أن يحمل في طيرانه، عِشَه على ظهره؟

أقبل شيوخ المدينة إليه يلحُّون عليه بالبقاء بينهم لأنه كان مبعث أحلامٍ عِذاب لأهل المدينة ونعتوه بالابن الحبيب، نعتِ المسيح.

ومشى والجمع حوله إلى ساحة المعبد، فخرجت عرّافة من الهيكل اسمها «المطرة» فنظر إليها بحنان لأنها أوّل مَنْ آمن به. حيّته وسألته أن يُعلن لهم الحقيقة التي حصل عليها، قبل أن يرحل، فاستجاب لها، كاشفًا أسرار الحياة من المهد إلى اللحد.

سألته المطرة أن يحدّث عن الحبّ؛ فألقى عظة بليغة خلاصتها:

أن الحبّ نار تُطهّر وتُحرّر، وهو لا يعطي إلاَّ نفسه ولا يُطيق أن يكون مملوكًا. لكنّ الحبّ تاج وصليب في آن معًا.

ثم طلبت رأيه في الزواج فقال:

أحبّوا بعضكم بعضًا، ولكن حَذارِ أن تجعلوا من الحبّ قيدًا. قفوا معًا، ولكن من غير أن يلتصق واحدكم بالآخر، فأعمدة الهيكل تتساند ولا تتلاصق.

أي لا يجوز للزوج أن يقضي على شخصية كلٍّ من الزوجين المميّزة.

وراح كلٌّ يطرح عليه سؤالاً بدوره.

قال عن **الأولاد**: إنهم ليسوا بأولادكم، إنهم أبناء أشواق الحياة؛ تستطيعون أن تعطوهم محبتكم لا أن تلقّنوهم أفكاركم. أنتم

الأقواس، وأولادكم السهام الحيّـة التـي تنطلـق عنهـا. إنهـم خُلِقـوا لعصر يختلف عن عصر آبائهم.

وقال عن **العطاء**: إنّ الحقيقيّ منـه هـو مـا يُعطيـه الإنـسان مـن نفسه، فالعطاء في الطبيعة حاجة كيانية. إذ القطعـان والأشـجار إن لم تُعطِ تعرّضت للهلاك، فالحياة هي التي تُعطي الحياة، وما الإنسان إلا شاهدًا على عطائه ليس إلا.

عن **المأكل والمشرب** أجاب:

ليت لكـم أن تعيـشوا بعبـير الأرض وأن تحيـوا بـالنور كنبتـات الهواء. أما وإنكم لا تشبعون إلَّا بسلب لبن الحملان، وذبـح البهـائم فيجدر لكـل واحـد مـنكم أن يقـول في قلبـه: إن عـين القـدرة التـي تذبحك تذبحني وأنا كذلك سأغدو طعامًا لغيري. وما دمك ودمـي غير العصارة التي تغذي شجرة الحياة.

صورة جميلة للتعبير عن وحدة الوجود.

أما عن **العمل** فقال: إنه بركـة، وتحقيـق لحلـم الأرض البعيـدة، يُخصب المعرفة بقدر ما تخصبه المحبّة.

ورأى أن **الفرح والترح** توأمان لا ينفصلان يأتيان معًا ويمضيان معًا.

وعن **البيوت**، قال: بيتكم هو جسدكم الأكبر ينمو بالشمس في النهار ويهجعُ في الليل فتملأه الأحلام التي تنطلق به من المدينة إلى الخمائل والتلال، أي إلى حضن الطبيعة حيث السلام والجمال والحرّية. ويحذّر المصطفى من الإقامة في مدافن بناها الأموات للأحياء، أي الماضي للحاضر.

وعن **الثياب**، قال: هي تستر الكثير من جمالكم لكنّها لا تحجب ما ليس جميلاً فيكم؛ والأفضل استقبال الشمس بالقليل منها، لأن نفس الحياة في نور الشمس، ويد الحياة في الريح.

وعن **البيع والشراء** قال: في تبادل هِبات الأرض السخية كلُّ البحبوحة والرضا، إنما إذا لم يَجْرِ التبادل بروح المحبّة والإنصاف، قاد البعض إلى النَهم والبعض الآخر إلى الجوع. ولن يهنأ روح الأرض العظيم في النوم على فراش الريح إلاّ إذا انقضت حاجة الأصغر والأخير.

وعن **الجريمة والعقاب والعدل**، قال: كما أن ورقة واحدة على الشجرة لا تصفرّ إلا بمعرفة الشجرة كلّها، كذلك لا يستطيع المجرم أن يقترف جرمًا إلاّ بالإرادة الخفيّة التي هي إرادة الجميع. فالقتيل ليس بغير مسؤول عن قتله، والمسلوب ليس بغير ملوم في سلبه، ولا أبيض

اليدين غير ملوّث بقذارة المجرم. ذلك أن القتيل شريك في جريمة قتله لأن المجموع متضامن مع الفرد في السير نحو الذات الإلهيّة، وجذور الشر تتشابك مع جذور الخير في قلب الأرض الصامت. وأي حكم يصدر عَمَّنْ كان شريفًا بالجسد ولُصًّا بالروح؟

توبيخ الضمير هو العدالة التي تتوخّاها الشريعة.

وعن الحرية، قال: أكثر الناس حريّة يحملون حريّتهم نيرًا على أعناقهم. ولن يكون الإنسان حُرًا إلا متى كفّ عن التغنّي بالحرية كما لو كانت هدفًا واكتمالاً. فإن شاء الناس إسقاط طاغية عن عرشه فعليهم أولاً أن يحطّموا العرش الذي أقاموه له في قلوبهم.

والمغزى هو لا طاغية بدون عبيد.

وعن العقل والهوى، قال: إنّهما في صراع دائم فهما الدفّة والشراع للنفس الماخرة في البحر، فإن تحطّمت الدفَّة أو تمزّق الشراع غرقت السفينة. لذلك على النفس أن ترفع العقل إلى مستوى الهوى ليصبح قادرًا أن يغنّي، فالله يستريح في العقل ويتحرك في الهوى، وعلى الإنسان أن يتمثّل به.

وعن الألم: هو انكسار القشرة التي تغلّف الإدراك.

وعن معرفة النفس: الحقيقة نسبيّة، لذلك لا يجب أن يقـول المـرء إنه وجَد الحقيقة بل وجَد حَقيقتَه. لأن الـنفس تمـشي في جميـع الطـرق وتتفتح كالزهرة ذات التويجات التي لا تُعدّ.

وعن التعليم: لا يُعطى المعلّم من حكمتـه بـل مـن إيمانـه ومحبّتـه، فالحكيم والعالم والفنّان لا يُعطون فهمَهم بل يرشدون إلى الطريق.

وعن الصداقة: صديقك هو حاجتك وقـد انقـضت، هـو الحقـل الذي تزرعه بالمحبّة وتحصده بالـشكر. حـين يكـون صـامتًا، لا ينفـكّ قلبك يصغي إلى قلبه. لذا ليكن خير ما عندك لصديقك.

وعن الكلام: تتكلمون حـين ينقطـع حبـل الـسلام بيـنكم وبـين أفكاركم، ويتعذر عليكم أن تسكنوا في وحدة قلوبكم. الفكر طـائر إن سُجن في قفص الكلام تعذّر عليه أن يطير.

وعن الزمان: الحيـاة لا يحـصرها زمـان، والزمـان لا يُقـاس. ومـا الأمس إلا ذكرى اليوم، وما الغد إلاّ حلم اليوم. فعلى الحاضر أن يلِفّ الماضي بالذكرى، والمستقبل بالشوق والحنين.

وعن الخير والشرّ: الخير هو العطاء من الذات، والعطاء حاجة من حاجات الثمرة. هو حنين الإنسان إلى ذاته الجبّارة، والشر هو نقيضه.

وعن **الصلاة**: تصلّون عند الحاجة وفي الشدّة. ليتكم تصلّون وأنتم في منتهى الرخاء والفرح. الصلاة الحقيقية هي التوجّه إلى الله «ذاتنا المجنّحة»، بقولنا: إننا بإرادتك التي فينا نريد، وبرغبتك التي فينا نرغب. إننا لن نسألك شيئًا لأنك تعرف حاجتنا قبل أن تولد فينا. أنت حاجتنا. إذا زدتنا من ذاتك أعطيتنا كلّ شيء.

وعن **اللذّة**: هي نشيد من أناشيد الحرية. هي أزهار الرغبات وليست الثمار. هي غور يتطلع إلى قمَّة وهي ليست غورًا ولا قِمَّة.

ونصح المصطفى أهل أورفليس أن يكونوا في ملذاتهم كالنحل والأزهار. الزهرة للنحلة فوّارة حياة، والنحلة للزهرة رسول محبة. وفي عطاء اللذة وأخذها حاجة ونشوة.

وعن **الجمال**: الجسد قيثارة النفس. والجمال قلب ملتهب، ونفس مفتونة، وأبدية تنظر إلى ذاتها في مرآة، والناس هم الأبدية والمرآة.

وعن **الدين**: هو كلّ ما في الحياة من عمل وتأمل. يمشي في السحاب ويبتسم بثغور الأزهار، وللناس في حياتهم اليومية هيكل ودين. أي إنما الدين بالأعمال.

وعن **الموت**: هو والحياة واحد كما النهر والبحر. إنه ذوبان في

حرارة الشمس. والخوف من الموت شبيه بالرّجفـة التـي تـستولي عـلى الراعي أمام مليكه وقد جاء يقلّده وسامًا. المـوت هـو انعتـاق الـنفس للارتفاع إلى الله طليقة من كل قيد. إنه في مبدأ التقمّص الـذي آمـن بـه جبران تمهيدًا لحياة ثانية.

ولمّا أقبل المساء قالت المطرة للمصطفى: تبارك روحُك الذي كلّمنا.

فأجابها: وهل الذي تكلّم أنا؟ لم أكن إلا سامعًا.

وخاطب أهل أورفليس مودّعًا بقوله:

إن الريح تأمره بالانصراف عنهم.

ونزل من على درجات الهيكل ومشى فتبعه الـشعب حتـى المرفـأ. ووعده المصطفى بالرجوع إليه مع المدّ. ثم اسـتقلّته الـسفينة ملبّيًـا أمـر الريح بالذهاب. وبارك أهل أورفليس الذين أحبّهم من أعماق قلبه مع أنّـه لم يخـالطهم ولم يـدخل مـساكنهم. وعـاد إلى جزيرتـه، كـما عـاد زرادشت، بطل نيتشه في «هكذا تكلّم زرادشت» في آخر المطاف.

ووصل الجدول إلى البحر، وأتيح للأم العظيمة أن تـضمّ ابنهـا إلى صدرها من جديد. كان وداع المـصطفى لأهـل أورفلـيس عنـد نهايـة النهار حارًّا ختمه بقولـه: إذا اتفـق لنـا أن نجتمـع مـرّة بعـدُ في شـفق الذكرى، فستتحدَّث من جديد ونبني برجًا آخر في السماء.

وانطلقت به السفينة إلى المشرق. وهتف له الجمهور، إلاَّ أن المطرة بقيت صامتة تحدّق إلى السفينة حتى توارت في الضباب وتردّد قول المصطفى: «هنيهة بعدُ، لمحة استراحة على الريح، وتلدني امرأة أخرى».

نظرة عامة:

كان جبران قد نثر بعض بذور «النبي» في كتبه السابقة ولا سيما في «دمعة وابتسامة» و«المواكب»، غير أنه أنماها ههنا ونسّق بينها ثمارًا يانعة وأسبغ عليها هالة الوقار النبويّ والحكمة العلويّة. إن رأي المصطفى في الدين شبيه بما أبداه يوحنا المجنون وخليل الكافر. ونظرته إلى الله الذي يتجلى في جميع الكائنات ويوحّد بينها، عبّر عنها المؤلف في «دمعة وابتسامة». كما أن مفهومه للحبّ الذي يسمو على التقاليد والقيود، وللزواج الذي يجمع النفوس والقلوب لا الأجساد بدافع المصلحة، لا يختلف عنه في «الأجنحة المتكسرة». وفي «المواكب» جذور فلسفته المتعلّقة بالخير والعدل والطبيعة. أما مبدأ وحدة الوجود والتناسخ، فهو العمود الفقريّ في معظم كتاباته. لكن الصفاء المعنويّ في معالجة القضايا الاجتماعية والفكرية يسود «النبيّ» خاليًا من غيوم الغضب والنقمة والحقد التي عكّرت أجواء

الأقاصيص و«العواصف».

إن الطريقة التي وصف فيها جبران أفكاره في «النبي» وما تميّزت به من تخيّلات مجنّحة وتشابيه مبتكرة وصور خلّابة، هي في أساس هذه الرائعة.

لا شكّ أن جبران تأثر هنا من حيث الصيغة البيانية، بالإنجيل وبغنائية وليم بلايك وبأسلوب نيتشه في «هكذا تكلم زرادشت». إلاّ أنه أضفى عليها طابعه الشخصيّ.

أمّا الأفكار بحد ذاتها، فقد حاول جبران أن يجعل منها كتابًا مقدّسًا جديدًا يقود الناس بعد كارثة الحرب العالمية الأولى وما خلّفت من ضحايا ورواسب حقد ويأس، إلى طريق الله، طريق المحبّة والسلام.

بين «النبي» و«هكذا تكلم زرادشت» نقاط مشتركة، من حيث الإخراج: المصطفى كزرادشت إنسان متفوق بلغ حدّ النبوءة. والمطرة بالنسبة لكليهما هي المؤمنة الأولى والداعية الفاعلة الوفيّة. وهي ترمز، كما في بعض المذاهب الهنديّة والفارسيّة، إلى النور والخير والحق.

لقد اعتزل المصطفى في جزيرة للتأمل قبل أن يغدقَ حكمته على البشر. وزرادشت انزوى في «الجزيرة السعيدة». لكن الغاية تختلف: زرادشت حاول أن يعيد النظر بذهنية ثورية هدّامة في كل ما هو قائم في المجتمع من شرائع ومفاهيم، فيما المصطفى يربط الوجود بما وراء الوجود ربطًا حلوليًا ويكتفي برؤيا شعرية روحانيّة تقود إلى الكمال الذي يقرّب من الله؛ إذ بالرؤيا وحدها يتحدّ اللاهوت بالناسوت فيتفوَّق الإنسان على نفسه، ويتَّحد بالذات الكبرى: «سآتي إليك قطرة بدون حدود إلى محيط بدون حدود». وقد تردّدت هذه الخلاصة أكثر من مرة في كتب جبران السابقة واللاحقة بصيغ شتّى.

الرموز الجُبرانيّة:

في «النبـي» تكثـر الصور الرمزيّـة بحيـث تغطـى عـلى النصّ التفصيليّ. وقد وردت هذه الصور بمعظمها، في الكتب السابقة لكنّها في هذا الكتاب استكملت مدلولاتها.

لئن برع جبران في استعمال الصيغ البيانية من كناية إلى جناس وطباق ومجاز وتضادّ، وفي المقارنة بين نقيضين كالنعيم والجحيم، والنور والظلّ، والسمّ والدّسم، والليل والفَجْر، وملائكة السعادة وأبالسة الشر؛ ولئن توجّه إلى الحسّ والعقل والخيال في آن، فقد أتقن

أيضًا مخاطبة اللاوعي بلغة اللاوعي، أي بالرموز والأساطير.

أهمّ الرموز الجبرانيـة هـي الـشمس (نـار ونـور وشروق وغـروب وإشعاع روحيّ)، ثم الماء: (بحر وأمواج، ومطر، وندى، ونهـر، وبحـيرة) فالريح: (عاصفة، ونسيم) والأرض: (تراب، وخـصب، وبعـث، وتمـوز (يوليو)، وبعل، ونيسان (أبريل)، والضباب، وفصول الطبيعة).

هذه الرموز تمثّل قوى الطبيعة الجبّارة التي تكمن فيها قـدرة إلهيـة. الشمس مصدر النور بوجهيه الماديّ والروحيّ، والبحر أسـاس الحيـاة وملتقى الجداول، والريح الطاقـة المطلقـة التـي تهـدم وتبـدّد وتنقـل، والأرض منبت ومثوى الكائنات الحية، والضباب خميرة الوجود وهـو بداية الأشياء لا نهايتها. إنه مادة الوجود الخام في تحولاته المستمرة.

الأسلوب:

شرح «جبران» أسلوبه الكتابي إلى «ماري هاسـكل» عـلى الوجـه الآتي -استنادًا إلى «النبيّ»: «على الشعراء أن يُنصِتوا إلى إيقـاع البحـر، وهو الإيقاع الذي تَتّصف به أسفار الكتاب المقدس».

ولا تختلف طريقته الكتابيّة بالإنكليزية عنها بالعربية إلاّ مـن حيـث الهيكلية التي تقتضيها عبقرية اللغة. وهـو يتميّـز بالاقتـصاد في النعـوت

والتلوين، وأدوات الإشارة، والتشبيه والعطف، ويتميّز -أيضًا- باستعمال أدقّ الألفاظ في مواقعها وبترابط أشدّ بين الجمل.

حاول جبران في صوره الكلامية وتراكيبه أن يحمّل اللفظة فوق ما تعوّدت حملَه من المعاني. فهو إذ يجسّدُ المجرّداتِ ويؤنسِنُ الأَشياءَ ويعقلِن القَلبَ، يزاوج بين متناقضات ليستخرج منها صورة طريفة. هو يوحي بإحساس ذاتيّ ولا يفسّر أو يقرّر. هو يصوّر ولا يحدّد، نهجه نهج تصويري انطباعيّ.

سرّ انتشار «النبي»:

ما يزال «النبي» حتى اليوم في طليعة الكُتب المنتشرة في العالم وقد تُرجم إلى سبع وأربعين لغة. بالعربيّة له خمس ترجمات وكذلك بالفرنسيّة.

ولعلّ من أهمّ الأسباب التي حملت الأمريكيين خاصّة وسائر الشعوب عامّة، يقبلون عليه إقبالهم على الأسفار المقدّسة، هو أنّهم رأوا فيه سياحة فكريّة روحانيّة رائعة الأسلوب أراحت أعصابهم المرهقة في الجوّ الماديّ الجاف. وازداد الإقبال عليه بعد الحرب العالمية الثانية، ولما أثارته من رعب جعل الإنسَانَ ينصرف إلى التأمل. لقد ذكَّر

الناس -كما قال عنه نقّاد كبار- بالتوراة ومزامير داود وتعاليم المسيح. وأوجد بعض التعزية للجيل الضائع الذي نشأ بعـد الكارثـة الكونيّـة. إنه فعل محبّة وانفتاح في عصر الأنانيّة والانغلاق على الذّات.

***

جبران خليل جبران

النَّبِيّ

عرّبَه

الأرشمندريت أنطونيوس بشير

مقدمة المترجم

لو قَصرنا الدينَ على أثوابه الخارجيَّة، لكان جـبرانُ كـافرًا وكـان مترجمُ هذا الكتابِ مخطئًا في نَقْلِهِ إلى العربية —وإن كـان ناقـلُ الكفـر ليسَ بكافِر. ولكنْ، لو نظرنا في الدين إلى جوهره دون قُشوره، لَرَأينـا أنَّ جبرانَ في طليعة المؤمنين العاملين على نَشْرِ الحقيقةِ الأزليَّـةِ مجـرَّدَةً عن زُخرفِ الوهـم وبَهرجةِ الرَسم، مُتَحَلِّيَةً بجلبـاب فنَّـانٍ مـن الفـن الخالد.

في العقائـد والمـذاهب المنتـشرةِ في العـالم، كـما في جميـع نُظُمِـه الاجتماعية، قشورٌ يابسة ممتلئة من سوس الماضي. تقضي على مـا بقـي من اللُباب في هذه العقائدِ والمذاهب. فهنالك أنصارُ الحـرفِ القاتـل الذين يؤلِّفون الأكثرية الساحقة بين ذوي الـشرائع، يحـاربون الـروح المجدِّدة بكل ما لديهم مـن آلات الحـرب والـشر التـي وَرِثوهـا عـن جدودهم الغُيَّرِ على فِرِّيسيَّةِ الناموسِ والأنبياء. هؤلاءِ هم أبناءُ ظُلمـة الأمس يقضون أعمارهم متمسِّكين بأهـداب الـشريعة الـصَمّاء، وإن كانـت الـشريعة تقتـل أرواحَهـم وتعمـل عـلى قهـرهم وجمـودهم ومذلَّتهم.

وهنالك أنصارُ الروح المُحْيِيَة الذين يؤلِّفون الأقلية الـصُغرى في



الناس يحاربون جيوش الظُّلمة، ويحسرون القناع عـن وَجـه الحقيقـة بكل ما أوتوا من حكمة ومعرفة. هؤلاءِ هم أبناءُ ثورة الغد يحترمـون الشريعة بمقدار ما تحترم الشريعة الحياة التي في قلوبهم. ويضربون بها عَرْضَ الحائط إذا كانـت تَغِـلُّ إرادتهـم وتُثقِـل كـاهلَهم بنـير الجهـل والغباوة.

والأديبُ المجدِّد، الذي دُعيَ نابغـةَ المهجـر ورسـول الـشرق إلى الغرب، جبران خليل جـبران مؤلـف هـذا الكتـاب، هـو في مقدِّمـة أنصارِ الروح هؤلاء.

ولذلك يسرني أن أقدِّم إلى قرَّاء العربية المفكِّرين خلاصةَ أفكـاره وآرائه في أسرار الحياة من المهد إلى اللحد، مجموعةً مـن هـذا الكتـاب الصغيرِ الطافح بثمرات نبوغه وعبقريَّته.

أجل، إن في أعماق جبران نفسًا تطمحُ إلى الجديـد المفيـد، وتنفُـرُ من كلِّ تقليد بليد، فهو لا يكتب إلاَّ ما يعتقده حقًا وصوابًا. ولـذلك تأتي كتابته مرآةً نقيـةً تَعكِـسُ شخـصيةً كبـيرةً تـأبى أن تتقيَّـد بقيـود الماضي، أو أن تَلبِسَ حُلَّةً غير حُلَّتها.

بيد أنَّ هذه الشخصية الممتازة قد ظهرت في أوج عظمتها وكـمال

روحانيَّتها في هـذا الكتـاب الـذي أودعـه المؤلـف خلاصَـة آرائـه في الحبِّ، والـزواج، والأولاد، والبيـوت، والثيـاب، والبيـع والـشراء، والجـرائم، والعقوبـات، والحريـة، والـشرائع، والعقـل، والهـوى، والإثم، والصداقة، والدين، والموت، وغير ذلك على لسان نَبيٍّ سـماه المصطفى. وكأننا بالمؤلف قضى حياتـه يـستعد لإخـراج هـذا الـسفر النفيس، فإنَّ كتبه السابقة من عربية وإنكليزية ليست سوى مقـدِّمات لما في هذا الكتاب من حكمة، وفلسفة، وشـعر وفـن؛ فـلا تـرى فيـه جبران الثائر الـذي تـراه في «العواصـف» و«الأرواح المتمـردة»، ولا جبران الشاعر الذي تراه في «آلهـة الأرض» و«أيهـا الليـل» وغيرهمـا، ولا جبران المتألم في «لكم لبنانكم ولي لبناني» وفي صـورة «وجـه أمِّـي وجـه أُمتـي»، ولا جـبران المعلِّـم الحكـيم في «القـشور واللبـاب»، و«المجنون» و«السابق»، ولا جبران الرسام الرمزي في جميع ما أبرزتـه ريشته الساحرة، ولا جبران الخيالي في «بين ليل وصباح»، وفي «حفّـار القبور» بل ترى في هذا الكتاب جبران الذي هـو مـن هـذه العنـاصر جميعها، بل هو خلاصتها المختارة، فإنك لا تقرأ فصلاً من فصوله إلا وترى أمامك حكمةً من خيال وفلسفة في بلاغة وجمال.

قال أحد كبار المفكرين الغـربيين: «إن جـبران حَـدَثٌ في العمـر

ولكنَّه شيخ في الحياة، فهو كالأحداث توَّاق للجمال، وكالشيوخ متعشِّق للحكمة والحقيقة. فكأننا به يقول: سأدرك جميع الحقائق، سأعرف ما لا يوجد ناقصًا في الموازين، سأبكي مع الباكين، وسأضحك مع الضاحكين، سأسيح في جميع الفصول، وحيثما سرت سأهتدي إلى محجتي».

وقال آخر: «ليس في حياة جبران من أثر للتقليد أو الجمود، فلا هو بالمتفائل ولا بالمتشائم، ولا هو بالكاهن ولا بالكافر. بيد أنه بالحقيقة نبيٌّ بعيدُ النظر، مترنِّم أبدًا بأناشيد الفن الخالدة، ولعله يرى بعينيه الشرقيتين ما لا تتاح لنا رؤيته نحن أبناء الغرب، ولا غرو فإن معلمي الإنسانية يجيئون دائمًا من الشرق»!

وقال أديب آخر: «إن جميع كتابات جبران تدعو إلى التفكير العميق، بل ترغم قارئها على إعمال ذهنه وعقله. فإن كنتَ تخاف أن تفكر فالأجدر بك ألا تقرأ جبران».

وقال غيره: «نحن نعتقد أنَّ مؤلفات جبران بستان خالد ممتلئ بأثمار الغبطة والبهجة، بل هو جنَّةُ نورٍ عجيب لا يعثر فيها حتى أعداء الحقيقة أنفسهم».

وقال آخر: «إن جبران قد اقترب من الغرب وعلى شَفَتَيْهِ ابتسامة الشرق الجميلة، يحمل عطيَّةً ثمينة في صدره لكي يقدِّمها إلى الغـرب. فقد جاء كالمسيح يطفح قلبه محبة».

وقال أوغست رودين أعظم نحاتي العصر الحاضر بعد أن عـرف جبران عندما كان يعرض صوره في باريس: «إن العالم يجب أن ينتظـر كثـيرًا مـن شـاعر لُبنـان ونابغتـه جُـبران. فهـو ولْـيَم بلايـك القـرن العشرين».

هذا قليل من كثير مما لدينا من أقوال علـماء الغـرب في «النبـيّ»، رأينا أن نثبته لأبناء الشرق لكي يعرفوا أن الغرب يقـدِّر النـابهين مـن رجال الشرق قدرهم ويُنزِلُهم منزِلَتَهم من الاعتبار. وربما كانت هـذه أبرز ميزات الغرب على الشرق في استثمار مواهب الناس.

ولابد لنا قبل الفراغ من كلمتنا هذه، أن نفلت أنظار القـارئ إلى الملاحظات التالية:

١) جُبران يُصور فكره قبل أن يعبّر عنـه بالألفـاظ لأنـه مـن نوابـغ المصوّرين، لذلك فَلْيُعْنَ القـارئ بـدرس صـورة كـلِّ فكـر مـن أفكار المؤلف قبل أن يدرسَ الألفاظَ التي تعبّر عنها.

٢) جُبران مُفكِّر عميق وشاعر غير مخيَّر في شاعريته، فكلُّ عبارة تخرج من شفتيه ملؤها الفكر والشعر. فإذا لم تشاطر جبران شعوره، وتصبغ فكرك بصبغة فكره، فعبثًا تحاول أن ترافقه في سياحاته.

٣) ليس جبران كافرًا، بل هو مؤمن صادق في دينه، وهو يعتقد أنَّ الدينَ كلُّ ما في الحياة من الأعمال والتأمُّلات، وربما كان الفرق بين دينه ودين الذين يرشقونه بـ«الحرم الثقيل» كالفرق بين دين يسوع ودِين الكَتَبَةِ والفرِّيسيِّين المرائين الذين كانوا يقولون إن فيه شيطانًا.

٤) رأينا أن نثبت في ترجمة «النبيّ» العربية الرسوم الاثنى عشر التي رسمها المؤلف للأصل الإنكليزي. ولله هذه الرسوم البديعة التي لابد منها لإكمال الكتاب! فالصورة الأخيرة من أروع ما تصور به القوة المدبرة التي وراء هذا الكون. يد تعمل، وبصيرة ترى، وحولها العوالم صنعها في حلقات متراكزة، ومع أن هذا النوع من التصوير الرمزيّ جديدٌ في العالم العربيّ، فإنه أجمل ما تزين به المتاحف ودور العالم العربي، فإنه أجمل ما تزين به المتاحف ودور العلم وبيوت العبادات في العالم المتمدن. لذلك

فَلْيَنْظُرِ القَارئُ إلى الحقيقة التي يرمز إليها كُلُّ رسم من هذه الرسوم قبل أن يَقصُرَ نظره على الرسم نفسه.

٥) ليس «النبيّ» رواية أو حكاية يكفي أنْ يمرَّ بها القارئ ليدرك فحواها، ويفهمَ الحقيقة المنطوية عليها، ولكنه دائرة عِلْم، وأدب، وفن، وحكمة، وفلسفة. فلا تترك عبارة من عباراته قبل أن تقف على الحقيقة التي وراءها، وتتفهم العقيدة الجديدة التي تحملها إليك، فإن جاءت مثبتة لما لديك فَاقْتَبِلْها وَاحْتَفِظْ بها، وإن جاءت غريبة كما عرفته وألفته فلا تَرْفُضْهَا بل ضَعْها في دائِرةٍ من ذاكرتك ثم عُدْ إليها بعد حين متذكرًا أن الذين اضطهدوا «غاليلو» واحتقروا آراءه الغريبة ما كانوا ليضطهدوه لو عاد وعادوا إلى الحياة اليوم!

الأرشمندريت

أنطونيوس بشير

□□□

الاستعداد للسفر

وظَلَّ المصطَفى المختارُ الحَبيب، الذِي كـانَ فجـرًا لِذَاتِـهِ، يَتَرَقَّـبُ عَودَةَ سَفينَتِهِ فِي مَدينَةِ أُورفيليسَ اثنَتَـيْ عَـشرَةَ سَـنَةً لِيَركَبَهـا عائِـدًا إلى الجَزيرَةِ التي وُلِدَ فيها[1].

وفي السَنَةِ الثَانِيَةَ عَشرَةَ، في اليَومِ السَابعِ مِن أيلُولَ (سبتمبر)، شَهرِ الحَصَادِ، صَـعَدَ إلى قِمَّـةِ إحـدَى الـتِلالِ القَائِمَـةِ وَرَاءَ جُـدرَانِ المدِينَـةِ وأَلقَى نَظـرَةً عَميقَـةً إلى البَحـرِ، فَـرَأَى سَـفينَتَهُ تَمخُـرُ عُبَـابَ البَحـرِ[2] مَغمُورَةً بالضَباب.

فَـاختَلَجَ قلبُـه في أَعمَاقِـهِ، وَطَـارَتْ رُوحُـهُ فَـوقَ البَحـرِ فَرَحًـا، فأَغمَضَ عَينَيهِ. ثُمَّ صَلَّى في سُكُونِ نَفسِهِ.

***

غيرَ أَنَّه مَا هَبَطَ عنِ التَلَّةِ حتَّى فَاجَأَتْهُ كَآبَةٌ صَمَّاءُ، فَقالَ في قَلبِهِ: كَيفَ أَنصرِفُ مِن هذهِ المَدينةِ بِسَلامٍ، وأَسِيرُ في البَحرِ مِن غَـيرِ كَآبَـةٍ؟

---

(١) المطصفى: هو جبران نفسـه؛ أورفليس: هي الولايات المتحدة؛ والبلد الـذي أراد العـودة إليـه هو لُبنان.

(٢) عُباب البحر: موجه.

كَلاَّ! إنّني لَن أَبرحَ هذهِ الأَرضَ حَتَّى تَسيلَ الدِمَاءُ مِن جِرَاحِ رُوحِي[1].

فقد كانَت أَيَّامُ كَآبتِي طَويلةً ضِمنَ جُدرانِها، وأَطوَلَ مِنها كَانَتْ لَيالي وَحدَتي وانفِرادِي، ومَنْ ذَا يَستَطيعُ أن يَنفَصِلَ عَن كآبتِهِ ووَحدَتِهِ مِن غَيرِ أن يَتَأَلَّمَ في قَلبِهِ؟

كَثيرةٌ هي أَجزاءُ رُوحِي التي فَرَّقْتُها في هذِهِ الشَوَارعِ، وكثيرٌ هُم أَبناءُ حَنيني الذين يَمشُونَ عُراةً بينَ التِلالِ، فكَيفَ أُفارِقُهُم مِن غَيرِ أن أُثقِلَ كَاهِلي[2] وأَضغَطَ رُوحِي؟

فليسَ ما أُفارِقُهُ بالثَوبِ الذي أَنزَعُهُ عَنّي اليومَ ثُمَّ أَرتَدِيهِ غَدًا، بَل هُو بَشَرَةٌ[3] أُمَزِّقُها بيَدِي[4].

كلا، وليسَ فِكرًا أُخَلِّفُهُ[5] وَرَائي، بَل هُوَ قَلبٌ جَمَّلَتْهُ مَجَاعَتي وجَعَلَه عَطَشي رَقِيقًا خَفُوقًا.

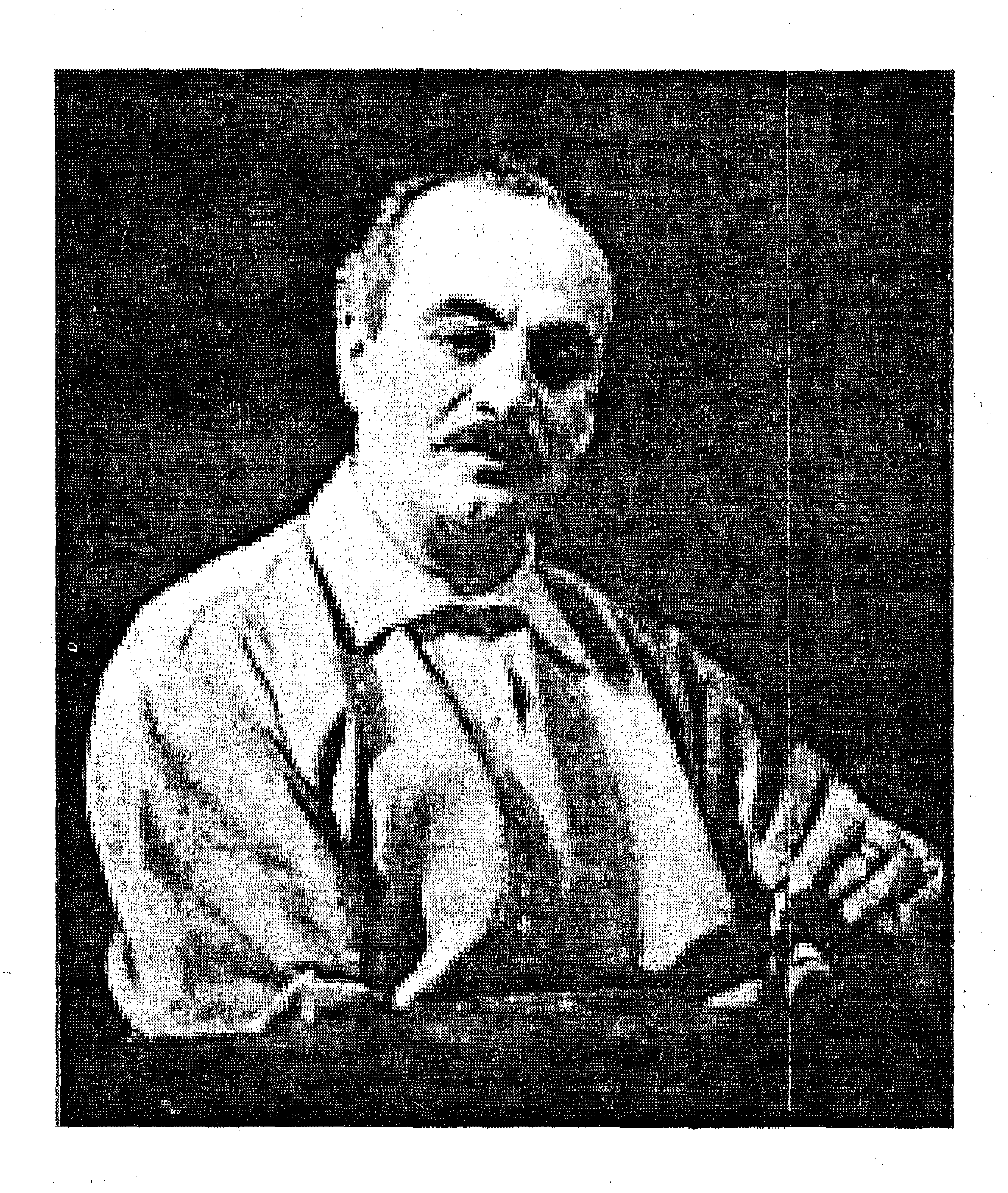
(١) وحدَه الألم يوحِّد البشر، وبواسطته وحدَه يستطيع الإنسانُ أن يسبر غور حقيقةِ أخيه الإنسان، ولا يمكن للوَحدة البشرية أن تصفو وتشفَّ إلا بالألم. وإن المصطفى وصل، عن طريق الألم، إلى مرتبة «الإنسان المتأله» الذي استطاع خلال السنوات التي قضاها مع نفسه أن يصل إلى هذه المرتبة.

(٢) كاهلي: منكبي، وأثقلَ كاهلي: أتعبني.

(٣) أفارقُه: أهجره، أغادرُه.

(٤) البَشَرَة: ظاهر الجسم.

(٥) أُخلِّفه: أتركه.



بيدَ أنّني لا أستَطِيعُ أن أُبطِئَ في سَفَري.

فإن البَحرَ الذي كَانَ يَدعُو كلّ الأَشياءِ إليـهِ يَستَدعِيني، فَيجبُ عليَّ أن أَركَبَ سَفينَتي وأَسيرَ في الحَالِ إلى قَلبِهِ.

وَلَو أَقَمْتُ الليلَةَ هَهنا، فَإنّني، مَعَ أنَّ سَاعَاتِ اللَيلِ مُلتَهِبَةٌ، أجمُدُ وَأَتبَلورُ وَأَتَقَيَّدُ بِقُيُودِ الأَرضِ الثَقِيلَةِ[1].

وإنّني أَوَدُّ لَو يُتَاحُ لي أن يَصحَبَني جَمِيعُ الذين هَهنا. ولكِنْ، أنَّى يَكُونُ لي ذَلكَ؟

فإنَّ الصَوتَ لا يَستَطِيعُ أنْ يَحمِلَ اللِسَانَ والشَفَتَيْنِ التي تَتَسَلَّحُ بِجَنَاحَيْهِ. ولِذَلكَ فَهوَ وَحدَهُ يَختَرِقُ حُجُبَ الفَضَاءِ.

أَجَلْ، والنَسرُ، يا صَاح، لا يَحمِلُ عُشَّهُ، بَل يَطيرُ وَحدَه مُحَلِّقًا في عَنَانِ[2] السَماء.

وعِندَمَا بَلَغَ المُصطَفَى سَفْحَ التَلَّةِ التَفَتَ ثَانِيَةً إلى البَحرِ فَرَأى سَفِينَتَهُ تَدنُو مِنَ المرفأ، وأبنَاءُ بِلادِهِ يَروحُونَ ويَجِيئُونَ عَلَى مُقَدَّمِها.

---

(١) قيود الأرض الثقيلة: قوانينها وأنظمتها وتقاليدها.

(٢) العَنان (بالفتح): ما ارتفع من السماء وما بدا لك منها إذا نظرتها؛ والعِنان (بالكسر): سَيرُ اللجام، سُمِّي بذلك لأنه يعترض الفم ولا يَلِجُهُ. جمعه أعِنَّة وعُنُن: يقال: ذلَّ عِنانه، أي انقاد.

فَهَتَفَ لهَم مِن صَمِيمِ فُؤادِهِ وقَال:

يَا أَبنَاءَ أُمَّتِي الأُولى، أَيُّها الرَاكِبُونَ مُتُونَ الأَموَاجِ، المُذَلِّلُون مَـدَّها وجَزْرها.

كَم مِن مَرَّةٍ أَبحَرْتُم في أَحلامي! وَهَا قَد أَتَيْتُم وَرَأَيْتُكُم في يَقظَتِـي التي هِي أَعمَقُ أَحلامِي.

إِنَّني عَلَى أَتَمِّ الأُهْبَةِ(١) للإِبحَارِ، وَفي أَعمَاقِي شَوْقٌ عَظيمٌ يَتَرَقَّـبُ هُبُوبَ الرِيحِ عَلَى القُلُوعِ بِفَارِغِ الصَبرِ.

وَلكنَّنِي أَوَدُّ أَن أَتَنَفَّسَ مَرَّةً وَاحِدةً في هَذَا الجَوِّ الهَادِئِ وَأَنْ أَبعَـثَ بِنَظرَةٍ وَاحِدَةٍ إلى الوَرَاءِ.

وَحِينَئِذٍ أَقِفُ مَعَكُم، مَلَّاحًا بَينَ المَلَّاحِينَ.

أَمَّا أَنتَ أَيُّها البَحرُ العَظِيمُ(٢)، أَيُّها الأُمُّ الهَاجِعَةُ.

أَنتَ أَيُّها البَحرُ العَظِيمُ الذي فِيكَ وَحـدَكَ يَجِـدُ النَهـرُ والجَـدوَلُ سَلامَهما وَحُرِّيَّتَهما(٣).

---

(١) الأُهبَة: العُدَّة. يُقال: أخذ للسفر أُهْبَتَهُ.

(٢) البحر هو الكائن الأعظم الذي يستوعب جميع كائناته.

(٣) نجد في فكرة البحر فكرة التقمُّص التي يؤمن بها جبران. فالجدول الذي يذوب في البحر ويتبخَّر ليعود جدولاً من جديد، هو صورة للإنسان الذي يموت ليعود من جديد في صورة أخرى يؤدِّي الدورَ الذي عليه أن يؤدِّيه.

فَاعلَمْ أنَّ هَذَا الجَدولَ لَن يَدُورَ إلَّا دَورَةً وَاحِدَةً بَعدُ، وَلَن يَسمَعَ أَحَدٌ خَريرَهُ عَلَى هَذا المَعْبَرَ اليَومِ، وحِينئِذٍ آتي إليكَ نُقطَةً طَليقَةً إلى أُوقيانُوسَ طَليقٍ.

***

وفِيمَا هُو مَاشٍ رَأىَ عَنِ بُعدٍ رِجَالاً وَنِسَاءً يَترُكُونَ حُقُولَهُم وَكُرُومَهم ويُهَرْوِلُونَ[1] إلىَ أَبوَابِ المَدينة.

وَسَمِعَهُم يصَرُخُونَ بَعضُهم بِبَعضٍ مِن حَقلٍ إلىَ حَقلٍ، مُرَدِّدينَ اسمَهُ، وَكُلٌّ مِنهُم يُحَدِّثُ رَفيقَه بِقُدُومِ سَفينَتِهِ.

***

فقَالَ في نَفسِه:

أَيكونُ يَومُ الفَراقِ يَومَ الاجتِمَاع؟

أَم يَجرِي عَلَى الأَفوَاهِ أنَّ مَسَائِي كَانَ فَجرًا لي؟

ومَاذَا يَجدُرُ بِي أَن أُقَدِّمَ لِلفَلَّاحِ الذي تَرَكَ سِكَّتَهُ في نِصفِ تَلْمِهِ،

(١) يهرولون: يسرعون في مشيهم.

وَللكَرَّامِ الذي أَوْقَفَ دُولابَ مَعصَرَتِهِ(١)؟

أَيَتَحَوَّلَ قَلبي إلى شَجَرةٍ كَثيرةِ الأثمارِ فَأَقطُفَ مِنها وأُعطِيَهم؟

أَم تَفِيضُ رَغَباتي كاليَنبُوعِ فَأَملأَ كُؤوسَهُم؟

هَل أَنَا قِيثَارَةٌ فَتُلامِسَني يَدُ القَدِيرِ، أَم أَنَا مِزمَارٌ فَتَمُر بِي أَنفَاسُه؟

أَجَلْ، إِنَّني هَائِمٌ(٢) أَنشُدُ السَكِينَةَ؛ ولَكِنْ، مَا هُو الكَنزُ الذِي وَجَدْتُه في السَكِينَة لِكَي أُوَزِّعَهُ بِطُمَأنِينَةٍ؟

وإِنْ كَانَ هَذا اليَومُ يَومَ حِصَادي، فَفِي أَيَّةِ حُقُولٍ بَذَرْتُ بِذَارِي، وفي أَيِّ فَصلٍ مِن الفُصُول المَجْهُولَةِ كَانَ ذَلكَ(٣)؟

و إِن كَانَتْ هَذهِ هِيَ السَاعَةُ التِي يَجدُرُ بِي أَن أَرفَعَ فِيهَا مِصبَاحِي وَاضِعًا إِيَّاهُ عَلى مَنَارَتي، فَإِنَّ النُورَ الذِي يَتَصَاعَدُ مِنهُ لَيسَ مِنّي.

لأَنَّني سَأَرفَعُ مِصبَاحِي فَارِغًا مُظلِمًا.

---

(١) السِكَّة: جمعها سِكك. حديدة الفدَّان التي تشقُّ الأرض؛ التلم: الشقُّ في الأرض يُحدثه الفلاحُ لدى حراثتها؛ المَعصرة (بالفتح): مكان يعصر فيه العنب ليتحوَّل إلى دِبسٍ أو خمر. والمِعصرة (بالكسر): ما يُعصَرُ به العنبُ وغيره.

(٢) هائم: شارد، تائه.

(٣) يوم الحصاد: هو يوم التبشير والكرازة. وهو عمل الأنبياء أثناء تواجدهم بين البشر. والكلام على المصباح والمنارة في الفقرة التي تلي، هو الكلام على دوره كنبيٍّ يعمل لهداية البشر.

ولَكِنَّ حَارسَ اللَّيلِ سيَملأَهُ زَيتًا، وسَيُنيرُهُ أَيضًا.

قَالَ هَذَا مُعَبِّرًا عَنهُ بِالأَلفَاظِ، ولكِنَّ كَثيرًا مِثلَ هَذَا حَفِظَه فِي قَلبِهِ مِن غَيرِ أَن يُعلِنَهُ، لأَنَّه هُو نَفسُه لَم يَقدِرْ أَنْ يُوضِحَ سِرَّهُ العَمِيقَ.

***

وَعِندَما دَخَلَ المَدينَةَ استَقبَلَهُ الشَعبُ بأسرِهِ، وَكَانُوا يَهتِفُونَ لَه مُرَحِّبينَ بِهِ بصَوتٍ وَاحِدٍ.

فَأَوقَفَهُ شُيُوخُ المَدينَةِ وقَالُوا لَهُ:

بِرَبِّكَ لاَ تُفَارِقْنَا هَكَذا سَرِيعًا.

فَقد كُنْتَ ظَهِيرَةً فِي شَفَقِنَا[1]،

وَقَد أَوحَى شَبَابُكَ الأَحلاَمَ فِي نُفُوسِنا.

وَأنتَ لَستَ بِالغَريبِ بَينَنا، كَلاَّ، وَلا أَنتَ بِالضَيفِ؛ بَل أَنتَ وَلَدُنا وَقَسِيمُ أَروَاحِنا الحَبيبُ.

فَلا تَجعَلْ عُيونَنا تَشتَاقُ إلى رُؤيةِ وَجهِكَ.

---

(١) شفقنا: غروبنا. وكنتَ ظهيرةً في شفقنا: كنتَ نورًا لنا في أيامنا الحالكة بحكمتك ومحبتك.

ثُمَّ قَالَ لَهُ الكُهَّانُ والكَاهِنَاتُ:

لا تَأذَنْ لأَموَاجِ البَحـرِ أن تَفـصِلَ بَينَنَـا، فتَجعَـلَ الأَعـوَامَ التـي قَضَيتَها بيننا نَسْيًا مَنْسِيًا.

فَقد كُنـتَ فِينَـا رُوحًـا مُحيِيَـةً، وَكـانَ خيالُـكَ نُـورًا يُـشرِقُ عَـلَى وُجُوهنا.

قَد تَعَشَّقَتْكَ قُلُوبُنا، وعَلِقَتْكَ[1] أَروَاحُنا.

ولَكنَّ مَحبَّتَنا تَقَنَّعَتْ بِحُجُبِ الصَمتِ، فَلَم نَستَطِعْ أن نُعَبِّرَ عَنهَا.

بَيدَ أَنَّها تَصرُخُ الآنَ بَأعلَى صَوتِها، وَتُمَزِّقُ حُجُبهَا لِكَي تُظهِرَ لَـكَ حَقِيقَتَها.

فَإنَّ المَحبَّةَ مُنذُ البَدءِ لاَ تَعرِفُ عُمقَها[2] إلاَّ سَاعَةَ الفرَاقِ.

***

ثُم جاءَ إِليهِ كَثيرُونَ مُتَوَسِّلينَ مُتَضَرِّعِينَ فَلَم يَرُدَّ عَلَى أَحَدٍ جَوابًا.

---

(١) عَلِقَتْكَ أرواحُنا: أحبَّتك وتعلَّقت بك.

(٢) لا تعرف عمقها: لا تعرف مقدار ما هي عليه، لا تشعر بقوتها.

وَلكنَّهُ كَـانَ يُحْنـي رَأسَـه، وَكَـانَ الوَاقِفُـون حَولَـهُ يَنظُـرُونَ عَبَرَاتِـهِ[1] تَتَسَاقَطُ بِغَزَارَةٍ عَلَى وَجنَتَيْهِ وَصَدرِهُ.

وَظَلَّ يَمشِي مَعَ الشَعبِ حتَّى وَصَلُوا إِلىَ السَاحَةِ الكُبرىَ أَمَـامَ الهَيكَلِ.

***

[1] عَبَراته: مفردها عَبرة (بالفتح): دموعه. وعِبرة (بالكسر): الحكمة والموعظة.

المِطْـــرَة

وَحَدَثَ إِذ ذَاكَ أَنَّ امرَأَةً عَرَّافَةً خَرَجَتْ مِنَ المَقْدِس، اسمُهَا «المِطْرَةُ».

فَنَظَرَ إِليهَا نَظرَةً مِلؤُهَا الحُبُّ والحَنَانُ، لأَنَّها كَانَت أَوَّلَ مَنْ سَعَى إِليهِ وَآمَنَ بِهِ مَعَ أَنَّهُ لَم يَكُن لَهُ إِلاَّ لَيلة وَضُحَاهَا فِي مَدِينَتِهِم.

فَحَيَّتْهُ بِاحتِرامٍ وقَالَتْ لَهُ:

يَا نَبِيَّ الله، قَد طَالَمَا كُنتَ تَسعَى وَرَاءَ ضَالَّتِكَ المَنشُودَةِ[1] مُفَتِّشًا عَن سَفِينَتِكَ التي كَانَتْ بَعِيدَةً عَنكَ.

وهَا قَد وَصَلَتْ سَفِينَتُكَ، ولم يَبقَ مِن بُدٍّ لِسَفَرِكَ.

عَظِيمٌ هُـو حَنِينُـكَ إِلىَ أَرضِ أَحلامِـكَ وتَـذكَارَاتِكَ ومَـواطِنِ الفَائِقَاتِ[2] مِن رَغَبَاتِكَ، وَلِذَلك، فَإِنَّ محبَّتَنا لاَ تُقَيِّدُكَ، وحَاجَتَنَا إِليكَ لا تُمسِكُ بِكَ.

---

(١) الضالَّة المنشودة: الشيء المفقود الذي تسعى وراءه وتطلبه. المنشودة: المطلوبة. وجمع ضالَّة: ضوالّ.

(٢) الفائقات: العظيمات.

وَلكِنَّنا نَسأَلُكَ قبلَ أَن تُفارِقَنا:

أَن تَخطُبَ فِينَا وتُعطِينَا مِنَ الحَقِّ الذي عِندَكَ.

وَنحنُ نُعطِيهِ لأَولاَدِنَـا، وَأَولادُنـا لأَولادِهـم وحَفَـدَتِهم. وَهَـذَا يُثَبِّتُ كَلامَك فِينَا عَلَى مَرِّ العُصُورِ.

فَفِي وَحدَتِك كُنتَ تَرقُبُ أَيَّامَنـا، وَفي يَقَظَتِـكَ كُنـتَ تُـصغِي إلَى بُكائِنا وضَحِكِنَا في غَفلَتِنا.

لِذَلكَ نَضرَعُ إِليكَ أَن تَكشِفَ مَكنُونَاتِنَا لِذَوَاتِنا، وَتُخبِرَنا بِكُلِّ مَـا أُظهِرَ لَكَ مِنَ أَسرَارِ الحَيَاةِ مِنَ المَهْدِ إلَى اللَّحدِ[1].

فَأَجَابَ قَائِلاً:

يَا أَبنَاءَ أُورفليسَ، بِماذَا أُحَـدِّثُكُم إِنْ لم أُظهِـرْ لَكُـم مَـا يَخـتَلِجُ في نُفُوسِكُم وَتَتَحَرَّكُ بِهِ ضَمائِرُكُم حَتَّى في هَذهِ السَّاعَةِ؟

***

(١) من المهد إلى اللحد: من الولادة إلى الموت.

المحبـــَّة

حِينَئِذٍ قَالت لَهُ المِطْرَة : هَاتِ لَنَا خُطبَةً في المَحبَّةِ.

فَرَفَعَ رَأسَه ونَظَر إلى الشَعبِ نِظرَةَ مَحَبَّةٍ وحَنَانٍ، فَصَمَتُوا جَمـيعُهم خَاشِعِينَ. فَقَال لَهُم بِصَوتٍ عَظِيمٍ:

إذَا أَشارَتِ المَحَبَّةُ إليكُم فَاتَّبِعُوها،

وإنْ كَانَتْ مَسَالِكُها صَعبَةً مُتَحَدِّرَةً[1].

وإذَا ضَمَّتكُم بِجَنَاحَيْها فَأَطِيعُوهَا،

وإنْ جَرَحَكُمُ السَيفُ المَستُورُ بَينَ رِيشِها.

وإذَا خَاطَبَتْكُمُ المَحبَّةُ فصَدِّقُوهَا،

وإنْ عَطَّلَ صَوتُها أَحلامَكُم وبَـدَّدَهَا كَـما تَجعَـلُ الـريح الـشمالية البستان قاعا صفصفاً[2].

***

(١) متحدِّرة: ملتوية، غير مستقيمة.
(٢) بدَّدها: فرَّقها، نَثَرهَا؛ قاعًا صفصفًا: أرضًا خالية لا نَبْتَ فيها ولا حياة.



«المحبة»

لأَنَّه كَما أَنَّ المَحبَّةَ تُكَلِّلُكُم، فَهِي أَيضًا تَصلُبُكُم.

وكَما تعمَلُ عَلَى نُمُوِّكُم، هَكَذا تُعَلِّمُكُم وتَستَأْصِلُ[1] الفَاسِدَ مِنكُم[2].

وَكَما تَرتَفِعُ إلَى أَعلَى شَجَرَةِ حَياتِكُم فتُعانِقُ أَغصَانَها اللَطِيفَةَ المُرتَعِشَةَ أَمَامَ وَجهِ الشَمسِ،

هَكَذا تَنحَدِرُ إلَى جُذُورِها المُلتَصِقَةِ بِالتُرَابِ وتَهُزُّهَا في سَكينَةِ اللَيلِ.

***

المحبَّةُ تَضُمُّكُم إلى قَلبِها كَأَغمَارِ الحِنطَةِ.

وَتَدرُسُكُم عَلَى بَيَادِرِهَا لِكَي تُظهِرَ عُرِيَكُم.

وتُغَربِلُكُم لِكَي تُحَرِّرَكُم مِن قُشُورِكُم.

وتَطحَنُكُم لِكَي تَجعَلَكُم أَنقِيَاءَ كَالثَلجِ.

---

(١) تستأصل الفاسدَ منكم: تقلعه من أصله.

(٢) المحبة هي فِعلُ تَخَلٍّ عن الـ «أنا» نحو الغير. لذلك، لابدَّ وأن يرافقها الألم. ولا تصبح المحبة فاعلةً خلاّقة إلا به.

وتَعجِنُكُم بِدُمُوعِهَا حَتَّى تلينُوا.

ثُمَّ تُعِدُّكُم لِنَارِهَا المُقدَّسَةِ، لِكَي تَصيرُوا خُبزًا مُقَدَّسًا يُقرَّبُ عَلَى مَائِدَةِ الرَبِّ المُقدَّسَة[1].

كُلُّ هَذَا تَصنَعُهُ المحبَّةُ بكُم لِكَي تُدرِكُوا أسرَارَ قُلُوبِكُم، فَتُصبِحُوا بِهَذا الإِدرَاكِ جُزءًا مِن قَلبِ الحَيَاة.

غَيرَ أَنَّكُم إِذَا خِفتُم، وَقَصَرْتُم سَعْيَكُم عَلَى الطُمَأنِينَةِ واللَذَّةِ في المَحبَّةِ:

فَالأَجدَرُ بِكُم أَن تَستُرُوا عُريَكُم وتَخرُجُوا مِنْ بَيدَرِ المَحبَّةِ إِلَى العَالَمِ البَعِيدِ حَيثُما تَضحَكُونَ، ولَكِنْ لَيسَ كُلَّ ضِحكِكُم؛ وتَبكُون، وَلكِنْ لَيسَ كُلَّ مَا في مَآقِيكُم مِنَ الدُمُوع.

المحبَّةُ لاَ تُعطِي إلاَّ نَفسَها، وَلا تَأخُذُ إلاَّ مِن نَفسِهَا.

المَحبَّةُ لاَ تَملُكُ شَيئًا، وَلا تُريدُ أن يَمْلُكَهَا أَحَدٌ،

لأَنَّ المَحبَّةَ مُكتَفِيَةٌ بِالمَحبَّةِ.

***

---

(١) الله هو محبة. وعندما يمارس الإنسانُ فِعْلَ المحبة يحقّق الأُلوهية فيه. وكأنَّ جبران يرى أن الإنسان هو إله متجسّد وعليه أن يكون في مستوى هذه الألوهيّة. وهكذا يصبح الذي يحبُّ خُبزًا سماويًا «يقرّب على مائدة الرب المقدّسة».

أَمَّا أَنتَ إِذَا أَحْبَبتَ فَلاَ تَقُلْ: «إنَّ الله في قَلبِي»، بَل قُل بـالأَحرَى: «أَنَا في قَلبِ الله».

ولاَ يَخطُرُ لَكَ البَتَّةَ[1] أَنَّكَ تستَطِيعُ أَن تَتَسَلَّطَ عَلَى مَسَالِكِ المَحبَّـةِ، لأَنَّ المحبَّـةَ إِنْ رَأَتْ فِيـكَ اسـتِحقَاقًا لِنعمَتِهـا، تَتَسَلَّطُ هِـيَ عَـلَى مَسَالِكِكَ.

وَالمَحبَّةُ لاَ رَغبَةَ لَهَا إِلاَّ في أَن تُكمِلَ نَفسَها.

وَلَكِنْ، إِذَا أَحبَبْتَ، وَكَانَ لاَ بُدَّ مِن أَن تَكُونَ لَكَ رَغبَاتٌ خَاصَّـةٌ بِكَ، فَلْتكُنْ هَذِهِ رَغبَاتِكَ:

أَن تَذُوبَ وتَكُونَ كَجَدوَلٍ مُتَدَفِّقٍ يُشَنِّفُ[2] آذَانَ اللَيلِ بِأَنغَامِهِ.

أَنْ تَخْبُرَ[3] الآلاَمَ التي في العَطفِ المُتَنَاهِي.

---

(١) البَتَّة: اسم المرَّة من بَتَّ: قطعًا وبدون رجعة ولا عَود. يقال: «لا أفعله البَتَّةَ» أي لا أفعله مُطلقًا. ومعناه أني قطعتُ هذا القولَ قطعةً واحدةً لا رَجعَةَ فيها ولا تَرَدُّد، وهو مصدر منصوب بِفعلٍ مُقَدَّر، والتاء للمبالغة.

(٢) يُشَنِّفُ آذان الليل: في الأصل، شَنَّف الأُذنَ: جُعل فيها الشَنْف. والشَنْف: ما عُلِّق في الأُذن أو أعلاها من الحَلْي. جمعه: شنوف وأشناف.
ويستعمل هذا التعبير بمعنى الطرب والإطراب، عندما يرتاح أحدَهم لسماع غناءٍ أو كلام.
وشَنَّف آذان الليل: ملأ الفضاء أنغامًا مُطرِبة ساحرة فاتنة.

(٣) تَخبُرُ: مضارع من خَبُرَ. وخَبُرَ الشيءَ: عَلِمَهُ بحقيقته وكُنهه.

أَن يَجرَحَكَ إِدرَاكُكَ الحَقِيقيُّ لِلمَحبَّةِ في حَبَّةِ قَلبِكَ، وَأَن تَنـزِفَ دِمَاؤكَ وَأَنتَ رَاضٍ مُغتَبِطٌ[1].

أَن تَنهَضَ عِندَ الفَجرِ بِقَلبٍ مُجَنَّحٍ خَفُوقٍ، فَتُؤَدِّيَ وَاجِبَ الشُّكرِ مُلتَمِسًا يَومَ مَحَبَّةٍ آخَرَ.

أَن تَستَرِيحَ عِندَ الظَهِيرَةِ وتُنَاجِيَ نَفسَكَ بوَجْدِ[2] المَحبَّة.

أَن تَعُودَ إِلَى مَنزِلِكَ عِندَ المَسَاءِ شَاكِرًا:

فَتنَامَ حِينَئِذٍ والصَلاةُ لأَجلِ مَن أَحبَبْتَ تَترَدَّدُ في قَلبِكَ وَأُنشودَةُ الحَمدِ والثَنَاءِ مُرتَسِمَةٌ عَلَى شَفَتَيْكَ[3].

---

(١) مُغتبِط: اسم فاعل من «اغتبط»: كان في مسرَّة وحسن حال. ومغتبط: مسرور.

(٢) وَجْد المحبَّة: الوَجْد هو المحبَّة. ووَجْدُ المحبَّة: تعبير للمبالغة.

(٣) يُعتبر هذا النشيد، نشيدُ المحبَّة، من أروع ما قيل فيها. وقد بلغ جبران في هذا النشيد مرتبة النبوَّة إذ رأى في كل إنسانٍ يمارس هذه المحبة «إلهًا» يمشي على الأرض. وهل يستطيع كل إنسان أن يكون إلهًا؟ هي ذي المثالية التي طبعت كتاب «النبي» وجعلته كتابًا يترجم تطلّعات البشر ويصوِّر أحلامهم، وخاصة في المجتمعات الغارقة في المادية الملحدة البعيدة عن كل رقيٍّ روحي. وكأنه، الكتاب، يصور العوالم التي يتوق إليها البشر فيما لم يستطيعوا تحقيقها على الأرض.
وهنا لابدَّ من الإشارة، بالنظر إلى تطوُّر الإنسان الجبراني، إلى مراحل ثلاث مرَّ بها هذا الإنسان وتمثَّلت في التالي:
١) الإنسان الضعيف وقد سحقه الظلم، وداسته أقدام الحيوان الكامن في الإنسان، دون أن تتوفَّر لديه القدرة على المواجهة والمجابهة؛ وإنْ حصل، فللمجتمع قُوَّةُ الإسكات =

***

= والإخضاع، فيكتفي بالتذمُّر، وبالسقوط في مهاوي الصمت – وربما الموت –على أمل النهوض ليقابل الشمس والريح والعاصفة... (مرتا البانية، يوحنا المجنون).

٢) الإنسان نفسه، وقد تمرَّدت روحُه، وأعلن العصيانَ المدنيَّ والدينيَّ والخُلُقي والاجتماعي، ورسم لنفسه، بقوة غريبة وجرأة أغرب، إطار مجتمع فريد مفعم بالشعر، بالسحر، بالجمال، بالخيال، وكأنه عالَم الأساطير حيث الخير سلطان، والحقُّ الرايةُ الوحيدة التي ترفرف، والروحُ النداءُ الوحيد الذي يُسمَع. فهدم الأنصابَ والأصنام، وبمعول الكلمة، هدم كلَّ المؤسسات القائمة رافضًا، مثلاً، أن يتحول الدينُ إلى مؤسسة استثمارية، والسياسةُ إلى عملية تنويم مغناطيسي، والتقاليدُ إلى سلعة في سوق الأقوياء، بها يتاجرون ليمسكوا بخناق الإنسان، ويمنعوه من الحركة (الأرواح المتمردة – العواصف).

٣) الإنسان، وقد صفت روحه، وتحوَّل كله إلى كتلة من الأحاسيس الربَّانية، والانفعالات الإلهية، والرؤى المستقبلية. هذا الإنسان يرسم، بروعة وصفاء ما بعدهما روعة وصفاء، أبدع ما يحلم به إنسان، وأبهى ما يتطلَّع إليه من مجتمع تعيش فيه الذات وقد حقَّقت نفسها بنفسها وقربت من الله.

ولقد كان كتاب النبي، في الواقع، زادًا روحيًا لا بدُّ منه للمجتمعات التي لم تجد في المعالجات المعاصرة حلاً لمشاكلها الروحية، ولا وجدت في الحضارة الإنسانية – شرقيّها وغربيِّها– أجوبة عن التساؤلات الضخمة التي كانت ترتسم في آفاق ذهنها، كما كان ملجأ لابدَّ منه في الفترات التي كانت تكثر فيها مشاهد الموت والقتل والدمار الناتجة عن الحروب التي هي، أولاً وأخيرًا، نتاج النقص الحاصل في الإنسان.

ولم يكن جبران مهندس الإنسان وحسب، بل كان أيضًا مبدع الحب، جمع فيه روحانية أفلاطون وصوفية المتصوفين إلى مادية أبيقور، وطهارة روميو إلى عنف فيدر، وإخلاص عنترة إلى جنون قيس...

الــزواج

ثُمَّ قَالَت لَهُ المِطْرَةُ ثَانِيةً: ومَا رَأيُكَ في الزَوَاجِ أَيُّها المُعَلِّم؟

فَأَجَابَ قَائِلاً:

قَد وُلِدْتُم مَعًا، وسَتَظَلُّونَ مَعًا إِلَى الأَبَدِ.

وَسَتكُونُونَ مَعًا عِندَمَا تُبَدِّدُ أَيَّامَكُم أَجنِحَةُ المَوتِ البَيضَاءُ.

أَجَلْ، وَسَتكُونُونَ مَعًا حتَّى في سُكُونِ تَذكَارَاتِ الله.

وَلَكِنْ، فَلْيَكُنْ بَينَ وُجُودِكُم مَعًا فُسحَاتٌ تَفصِلُكُمْ بَعضُكُم عَن بَعضٍ، حَتَّى تَرقصَ أَريَاحُ السَمَواتِ فِيمَا بَينكُم.

أَحِبُّوا بَعضَكُم بَعضًا؛ وَلكِنْ، لاَ تُقَيِّدُوا المَحبَّةَ بِالقُيُودِ، بَل لِتكُنِ المَحبَّةُ بَحرًا مُتَمَوِّجًا بَينَ شَواطِئِ نُفُوسِكُم.

لِيَمْلأْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنكُم كَأسَ رَفِيقِهِ؛ وَلكِنْ، لا تَشرَبُوا مِن كَأسٍ وَاحِدَةٍ.

أَعطُوا مِن خُبزِكُم، كُلَّ وَاحِدٍ لِرَفِيقِهِ؛ وَلَكِنْ، لاَ تَأْكُلُوا مِن الرَغِيفِ الوَاحِدِ.

غَنُّوا وَارقُصُوا مَعًا، وَكُونُوا فَرِحِينَ أبدًا؛ ولكِنْ، فَلْيَكُنْ كُلٌّ مِنكُم وَحدَه،

كَما أَنَّ أَوتَارَ القِيثَارَةِ يَقُومُ كُلُّ وَاحِد مِنهَا وَحدَه وَلكِنَّها جَمِيعًا تُخرِجُ نَغمًا وَاحِدًا.

***

لِيُعْطِ كُلٌّ مِنكُم قَلبَهُ لِرَفِيقِهِ؛ وَلَكِنْ، حَذَارِ أَن يَكُونَ هَذَا العَطَاءُ لأَجلِ الحِفظِ، لأَنَّ يَدَ الحَياةِ وَحدَهَا تَستَطِيعُ أَنْ تَحتَفِظَ بِقُلُوبِكُم.

قِفُوا مَعًا؛ وَلَكِنْ، لاَ يَقرَبْ أَحَدُكُم مِنَ الآخَرِ كَثِيرًا، لأَنَّ عَمُودَي الهَيكَلِ يَقِفَانِ مُنفَصِلَيْنِ،

والسِندِيَانَةُ والسَرْوَةُ لاَ تَنمُو الوَاحِدةُ مِنهُما في ظِلِّ رَفيقَتِها(١).

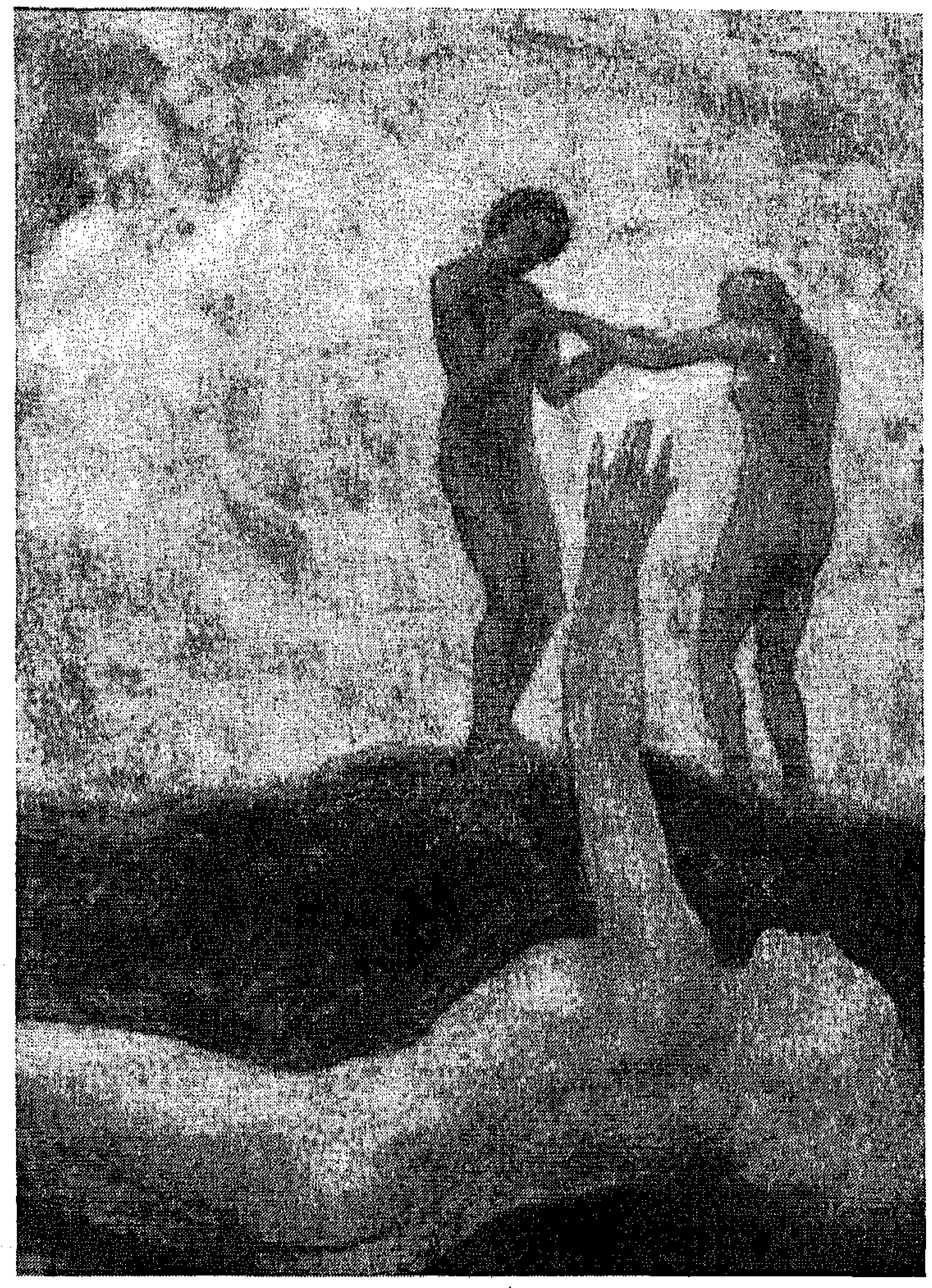
***

(١) في كلام المصطفى على الزواج، نجد التالي:

١- دعوة إلى نبذ التقاليد البالية، ما دَرَجَ عليه جبران في «الأرواح المتمردة» و«الأجنحة المتكسرة» و«العواصف».

٢- في بداية الحديث صدى لمعتقد جبران في الحلولية.

٣- يجب ألا يُذيب الزواجُ شخصيةَ الواحد في الآخر. لكلٍّ خصوصيَّة، كما لكل وَتَرٍ في العُود نَغَمٌ وصوت.



«الزواج»

الأَبنَــاء

ثُمَّ دَنَتْ مِنهُ امرَأَةٌ تَحمِلُ طِفلَها عَلَى ذِرَاعَيْها وقَالت لَهُ: هَاتِ حَدِّثْنا عَنِ الأَولادِ.

فَقَالَ:

إِنَّ أَولادَكُم لَيسُوا أَولادًا لَكُم.

إِنَّهم أَبنَاءُ وَبَنَاتُ الحَيَاةِ المُشْتَاقَةِ إلَى نَفسِهَا، بِكُم يَأْتُونَ إِلَى العَالَمِ، وَلَكِنْ لَيسَ مِنكُم.

وَمعَ أَنَّهم يَعِيشُونَ مَعَكُم، فَهُم لَيسُوا مِلْكًا لَكُم.

أَنتُم تَستَطِيعُونَ أَن تَمنَحُوهُم مَحبَّتكُم، وَلكِنَّكُم لا تَقدِرُونَ أَن تَغرِسُوا فِيهم بُذُورَ أَفكَارِكُم، لأَنَّ لَهُم أَفكَارًا خَاصَّةً بِهِم.

وَفِي طَاقَتِكُم[1] أَن تَصنَعُوا المَسَاكِنَ لأَجسَادِهِم.

وَلكنَّ نُفُوسَهُم لا تَقطُنُ[2] فِي مَسَاكِنِكُم.

---

(١) طاقتكم: قدرتكم، إمكانكم.

(٢) تقطن: تسكن.

«الأبنـــاء»



فَهِي تَقطُنُ في مَسكَنِ الغَدِ، الذِي لا تَستَطِيعُونَ أَن تَزُورُوهُ حَتَّـى ولاَ في أَحلامِكُم.

وَإنَّ لَكُم أَن تُجَاهِدُوا[1] لِكَي تَصِيرُوا مِثلَهُم.

وَلَكِنَّكُم عَبَثًا تُحاوِلُونَ أَن تجعَلُوهُم مِثلَكُم.

لأَنَّ الحَيَاةَ لا تَرجِعُ إلىَ الوَرَاءِ، ولا تَلَذُّ لهَا الإِقَامَةُ في مَنزِلِ الأَمسِ.

أَنتُمُ الأَقواسُ، وأَولادُكُم سِهَامٌ حَيَّةٌ قَد رَمَتْ بِهَا الحَيَاةُ عَن أَقوَاسِكُم.

فإِنَّ رَامِي السِهَامِ[2] يَنظُرُ العَلامَةَ المنصُوبَةَ عَـلَى طَرِيـقِ اللانِهَايَـةِ، فيَلويكُم بِقُدرَتِهِ لِكَي تَكُونَ سِهَامُهُ سَرِيعَةً بَعيدَةَ المَدَى.

لِذَلكَ، فَلْيَكُنِ التِواؤكُم بَينَ يَدَي رَامِـي الـسِهَامِ الحَكِـيمِ لأَجـلِ المَسَرَّةِ والغِبطَةِ.

لأَنَّه، كَما يُحِبُّ السَهمَ الذي يَطيرُ مِن قَوسِهِ، هَكَذا يُحِـبُّ القَـوسِ التي تَثبُتُ بَينَ يَدَيهِ[3].

***

(١) أن تجاهدوا: أن تناضلوا، أن تكافحوا.

(٢) رامي السهام: هو الله، وبيده علامات الأزمنة.

(٣) في فكر جبران الاجتماعي أن الابن لا يستطيع أن يكون صورة عن الأب، بل هو امتداد له واكتمال. وهكذا يجب أن يتصرّف الآباء لتستقيم الحياة.

العَطَـــاء

ثُمَّ قَال لَهُ رَجُلٌ غَنِيٌّ: هَاتِ حَدِّثْنا عَن العَطَاءِ.

فَأَجَابَ قَائِلاً:

إِنَّكَ إِذَا أَعطَيْتَ فَإِنَّما تُعطِي القَليلَ مِن ثَروَتِكَ.

وَلَكِنْ، لا قِيمَةَ لما تُعطِيهِ مَا لَم يَكُن جُزءًا مِن ذَاتِكَ، لأَنَّه أَيُّ شَيءٍ هِيَ ثَروَتُك؟

أَليسَتْ مَادَّةً فَانِيةً تَخزُنُهَا في خَزَائِنِكَ، وتُحَافِظُ عَليهَا جَهدَكَ(١) خَوفًا مِن أَن تَحتَاجَ إِليهَا غَدًا؟

والغَدُ، مَاذَا يَستَطيعُ الغَدُ أَن يُقَدِّمَ للكَلبِ البَالِغِ الفِطنَةِ الذي يَطمُرُ(٢) العِظَامَ في الرِمَالِ غَيرِ المَطرُوقَةِ، وَهُو يَتبَعُ الحُجَّاجَ إِلىَ المَدينَةِ المُقَدَّسَةِ؟

أَوَلَيْسَ الخَوفُ مِنَ الحَاجَةِ هُو الحَاجَةُ بِعَينِها؟

---

(١) تحافظ عليها جَهدَك: تحافظ عليها بكل طاقتك وقدرتك واستطاعتك. يقال: بذل جَهده ومجهوده، أي: طاقته. ويقال الجَهد (بفتح الجيم) والجُهد (بضمّها).

(٢) يطمُرُ العظام: يدفنها.

أَوَلَيْسَ الظَمأُ الشَديدُ للمَاءِ عِندَمَا تَكُونُ بئرُ الظَـامِئ مَلآنَـةً، هُـو العَطَشُ الذي لا تُروَى غُلَّتُه(١)؟

***

مِنَ النَاسِ مَنْ يُعطُـونَ قَلـيلاً مِـنَ الكَثـيرِ الـذي عِنـدَهُم، وَهُـم يُعطُونَهُ لأَجلِ الشُهرةِ، وَرَغبَـتُهُمُ الخَفِيَّـةُ في الـشُهرَةِ البَاطِلَـةِ تُـضِيعُ الفَائِدَةَ من عَطَايَاهُم.

وَمِنهُم مَنْ يَملُكُونَ قَلِيلاً ويُعطُونَهُ بأَسرِهِ.

وَمِـنهُمُ المؤمِنُـونَ بِالحَيَـاةِ وبِـسَخَاءِ الحَيَـاةِ؛ هَـؤُلاءِ لا تَفـرَغُ صَنادِيقُهُم، وَخزَائِنُهُم مُمتَلِئَةٌ أَبدًا.

ومِنَ النَاس مَنْ يُعُطونَ بِفَرَحٍ، وفَرَحْهُم مُكَافأَةٌ لَهُم.

وَمِنهُم مَنْ يُعطُونَ بِأَلَمٍ، وَأَلَمُهُم مَعمُودِيَّةٌ لَهُم.

وَهُنَالِكَ الذينَ يُعطُونَ ولا يَعرِفُونَ مَعنًى لـلأَلَمِ في عَطَـائِهِم، ولا يَتَطَلَّبُونَ فَرَحًا، ولا يرغَبُونَ في إِذاعَةِ فَضَائِلِهم، وَهَـؤُلاءِ يُعطُـونَ مِمَّـا عِندَهُم كَما يُعطِي الرَيحَانُ عَبيرَه العَطِرِ في ذَلِكَ الوَادِي.

---

(١) غُلَّته: عَطَشه.

«العطـــاء»

بِمِثلِ أَيدِي هَؤُلاءِ يَتكَلَّم الله، ومِـن خِـلالِ عُيُـونِهم يَبتَـسِمُ عَـلَى الأَرضِ.

جَمِيلٌ أَن تُعطِي مَنْ يسأَلُكَ مَا هُوَ في حَاجَةٍ إِليه؛

وَلَكِنْ، أَجمَلُ مِن ذَلِـكَ أَن تُعطِـيَ مَـنْ لا يَـسأَلُكَ وَأنـتَ تَعـرِفُ حَاجَتَهُ. فَإِنَّ مَنْ يَفتَحُ يَدَيْهِ وَقَلبَهُ لِلعَطَاءِ يَكُونُ فَرَحُـهُ بِـسَعْيِهِ إِلَى مَـنْ يَتقَبَّلُ عَطَايَاهُ، والاهتِداءُ إِليه، أَعظَمَ مِنهُ بِالعَطَاءِ نَفسِهِ.

وَهَل في ثَروَتِكَ شَيءٌ تَقدِرُ أَن تَستَبقِيَهُ لنَفسِكَ؟

فإِنَّ كُلَّ مَا تَملِكُهُ اليومَ سَيَتَفَرَّقُ ولا شَكَّ يومًا مَا.

لِذَلكَ أَعطِ مِنهُ الآنَ، ليَكُونَ فَصلُ العَطَـاءِ مِـن فُـصُولِ حَيَاتِـكِ أَنتَ دُونَ وَرَثَتِكَ.

وقَد طَالَمَا سَـمِعتُكَ تَقُـولُ مُتَبَجِّحًـا[1]: «إِنَّنـي أُحِـبُّ أَن أُعطِـيَ، وَلَكِنِ المُستَحِقِّينَ فَقَط».

فَهَل نَسِيتَ، يَا صَاحِ[2]، أَنَّ الأَشجَارَ في بُستَانِكَ لا تَقُولُ قَولَـكَ،

---

(١) متبجِّحًا: متفاخرًا، متباهيًا.

(٢) يَا صَاحِ: ترخيم يا صاحِبُ.

ومِثلَهَا القُطعَانُ في مَرَاعِيكَ؟

فَهي تُعطِي لِكَي تَحيَا، لأَنَّهَا إِذَا لم تُعطِ عَرَّضَتْ حَياتَها لِلتَهلُكَةِ.

الحقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّ الرَجُلَ الذي استَحَقَّ أَن يقتَبِلَ عَطِيَّةَ الحَياةِ ويَتَمَتَّعَ بِأَيَّامِهِ وَلَيالِيهِ، هُوَ مُستَحِقٌّ لِكُلِّ شَيءٍ مِنكَ.

وَالذِي استَحَقَّ أَن يَشرَبَ مِن أُوقيَانُوسِ الحَياةِ يَستَحِقُّ أَن يَملأَ كَأسَه مِن جَدوَلِكَ الصَغِيرِ.

لأَنَّه أَيُّ صَحَراءَ أعظَمُ مِنَ الصَحَراءِ ذَاتِ الجُرْأَةِ والجَسَارَةِ عَلَى قُبُولِ العَطِيَّةِ بِما فِيهَا مِنَ الفَضلِ والمِنَّةِ؟

وأَنتَ، مَن أَنتَ، حتَّى أنَّ النَاسَ يَجِبُ أَن يُمزِّقُوا صُدورَهُم وَيَحسُرُوا(١) القِناعَ عَن شَهامَتِهم وعِزَّةِ نُفُوسِهِم لِكَي تَرَى جَدارَتُهم لِعطَائِكَ عَارِيَةً وأَنفَتَهُم(٢) مُجَرَّدَةً عَنِ الحَيَاءِ؟

فَانظُرْ أَولًا: هَل أَنتَ جَديرٌ بِأن تَكُونَ مِعطَاءً، وَآلَةً لِلعَطَاءِ؟

لأَنَّ الحَيَاةَ هي التِي تُعطِي للحَياةِ، في حِينَ أَنَّكَ، وَأَنتَ الفَخُورُ بِأن

(١) يحسروا القناع: يكشفوه.
(٢) أَنَفَتهم: عزَّة نفوسهم.

قَد صَدَرَ العَطاءُ مِنكَ، لَستَ بِالحَقيقَةِ سِوَى شَاهِدٍ بَسيطٍ عَلَى عَطَائِكَ.

***

أَمَّا أَنتُم، الذِينَ يَتَنَاوَلُونَ العَطَاءَ والإِحسَانَ -وَكُلُّكُم مِنهُم- فَلَا تَتَظَاهَرُوا بِثِقَلِ وَاجِبِ مَعرِفَةِ الجَميلِ، لِئَلَّا تَضَعُوا بِأَيدِكُم نِيرًا(١) ثَقِيلَ الحِمْلِ عَلَى رِقَابِكُم ورِقَابِ الذينَ أَعطَوكُم.

بَل فَلْتكُن عَطَايَا المُعطِي أَجنِحَةً تَرتَفِعُونَ بِهَا مَعَه.

لأَنَّكُم إذَا أَكثَرتُم مِنَ الشُعورِ بِمَا أَنتُم عَليهِ مِنَ الدِينِ، فَإِنَّكُم، بِذَلِكَ، تُظهِرُونَ الشَكَّ والرِيبَةَ في أَرْيَحِيَّةِ(٢) المُحْسِنِ الذِي أُمُّهُ الأَرضُ السَخِيَّةُ، وأَبُوهُ الربُّ الكَرِيمُ(٣).

---

(١) النير: الخشبة المعترَضة في عنقَي الثورَيْن بأداتها. يُربَطُ بها الثوران لدى استعمالها في الفلاحة وخلافها. ولفظة «النير» تستعمل مجازًا للتدليل على الاستعباد.

(٢) الأَرْيَحِيَّة: خَصلة (صفة) تجعل الإنسانَ يرتاح إلى الأفعال الحميدة وبذْل العطايا. والأَرْيَحِيُّ: الواسعُ الخُلُقِ النشيطُ إلى المعروف.

(٣) العطاء وَجهٌ من وجوه المحبة، لا بل إن المحبَّة لا تكون محبَّة إلاّ بالعطاء. لذلك نجد الألم ملازمًا للعطاء كما هو ملازم للمحبة. ولا يمكننا أن نفهم كلام جبران في العطاء إلا إذا جعلنا إلى جانبه كلامه في المحبة، إذ العطاء رمز للوجود الإنساني وعنوان له، ولا قيمة للوجود الإنساني بمعزل عن العطاء، ولا يهمُّ مقدار ما تعطي، بل الأهمُّ كيف تعطي؟ وكأن جبران يطرح بذلك معادلة جديدة قوامها: قُلْ لي كيف تُعطي، أَقُلْ لك مَنْ أنت.

الغـــذاء

وَبعدَ ذَلكَ جَاء إليه فُندُقِيٌّ شَيخٌ وقَالَ لَهُ: هَاتِ حَدِّثنا عَن المَأكَلِ والمَشرَبِ.

فَأجَاب قَائِلاً:

أَوَدُّ لَو أَنَّك تَقدِرُ أَن تَعِيشَ عَلَى عَبِيرِ الأَرضِ.

تَكتَفِي بِالنُورِ كَنباتَاتِ الهَواءِ.

غَيرَ أَنَّك مُضطَرٌّ أَن تقتُلَ لِتَعيشَ، وَأن تَسرِقَ المَولُودَ الصَغِيرَ مِن حِضْنِ أُمِّهِ مُختَطِفًا حَلِيبَهَا لِتَبرِيدِ ظَمَئِكَ.

لِذَلكَ، فَلْيَكُنْ عَمَلُكَ مَظهَرًا مِن مَظَاهِرِ العِبَادَةِ.

وَلْتكُنْ مَائِدَتُكَ مَذبَحًا تُقَرَّبُ عَليهِ القَرابِينُ النَقِيَّةُ الطَاهِرةُ مِنَ الحُقُولِ والسُهُولِ ضَحِيَّةً لما هُو أَكثُر مِنهَا نَقَاوَةً في أَعمَاقِ الإِنسَانِ.

***

وَإِذَا ذَبَحت حَيوانًا فَقُل لَهُ في قَلبِكَ:

«إِنَّ القُوَّةَ التي أَمَرتْ بِذَبْحِكَ، ستَذْبَحُنِي نَظيرَكَ.

وَعِندَمَا تَحِينُ سَاعَتي سَأَحتَرِقُ مِثلَكَ.

لأَنَّ الشَرِيعَةَ التِي أَسلَمَتْكَ إلى يَدَيَّ سَتُسَلِمُني إلىَ يَـدَيْ مَـنْ هُـوَ أَقوَى مِنِّي.

وَليسَ دَمُكَ وَدَمي سِوَى عُـصَارَةٍ قَـد أُعِـدَّت مُنـذُ الأَزلِ غِـذَاءً لِشَجَرةِ السَماءِ».

***

وَإِذَا نَهَشْتَ تُفَّاحَةً بِأَسنَانِكَ فَقُلْ لهَا في قَلبِكَ:

«إِنَّ بُذُورَكِ سَتَعِيشُ في جَسَدِي،

والبَرَاعِمَ التِي سَتَخرُجُ مِنهَا في الغَدِ سَتُزهِرُ في قَلبِي،

وسَيَتَصَاعَدُ عَبِيرُكِ مَعَ أَنفَاسِي،

وَسَأَفرَحُ مَعَكِ في جَميعِ الفُصُولِ»[1].

***

(١) هي وحدة الوجود عند جبران.

وَإِذَا قَطَفتَ العِنَبَ مِن كُرُومِكَ في أَيَّامِ الخَرِيفِ، وَحَمَلْتَهُ إلى المَعْصَرَةِ[1]، فَقُلْ لَهُ في قَلبِكَ:

«أَنا كَرمَةٌ مِثلَكَ، وسَتُجمَعُ أَثمارِي وَتُحمَلُ إلى المَعْصَرَةِ، وسَيَضَعُونَني كَالخَمرِ الجَدِيدِ في زِقاقٍ[2] جَديدَةٍ».

وَعِندمَا تَستَقِي الخَمرَةَ مِن زِقَاقِها في أَيَّامِ الشِتَاءِ، أَنشِدْ في قَلبِكَ أُنشُودَةً لِكُلِّ كَأسٍ تَشرَبُها.

وَلْيَكُنْ لكَ مِن أَنَاشِيدِكَ أَجمَلُ التَذكَاراتِ لأَيَّامِ الخَرِيفِ وَلِلكَرْمَةِ والمَعْصَرَةِ.

***

(١) المعصرة (بفتح الميم): مكانُ عَصرِ العنب. والمِعصرة (بكسر الميم): آلة عَصْرِ العنب.

(٢) زِقاق: مفردها زِقّ: جِلدٌ يُجزُّ ولا يُنتف ويُستعمل لحمل الماء. والزُّقّ (بالضم): الخمر. والزُّقاق: مفردٌ جمعهُ أَزِقَّة: وهو الطريق الضيّق. يذكَّر ويؤنَّث.

العَمَل

ثُمَّ جَاءَ إليه فَلَّاحٌ وقَالَ لَهُ: هَاتِ حَدِّثْنَا عَنِ العَملِ.

فَأَجَابَ قَائِلاً:

إِنَّكُم تَشتَغِلُونَ لِكَي تُجَارُوا الأَرْضَ وَنَفْسَ الأَرضِ في سَيرِهَا.

لأَنَّ الكَسُولَ غَرِيبٌ عَن فُصُولِ الأَرضِ، وَهَائِمٌ لا يَسِيرُ في مَوكِبِ الحَياةِ، السَائِرةِ بِعَظَمَةٍ وجَلالٍ في فَضَاءِ اللانِهَايَةِ إِلَى غَيرِ المُتَنَاهِي(١).

***

فَإِذَا اشتَغَلْتَ فَمَا أَنتَ سِوَى مِزمَارٍ تَختَلِجُ في قَلبِكَ مُنَاجَاةُ الأَيَّامِ فَتَتَحَوَّلُ إلى مُوسِيقَى خَالِدَةٍ.

---

(١) غير المتناهي: هو الله. يعرض جبران هنا لقانون الحياة الأزلي، ألا وهو قانون الحركة والجمود. وكأنه يطرح، خلال عرضه، معادلةً تقول: الحركة تساوي الحياة، والجمود يساوي الموت. ويَستشهد بالأرض التي لولا حركتها ودورانها حول نفسها لتحوَّلت في الفضاء الكوني إلى ذُرَيْرَات، وفنى كلُّ ما في الوجود... يقول أبو القاسم الشابي في قصيدة «إرادة الحياة»:

هو الكونُ حيٌّ يحبُّ الحياة
ويحتقر الميت مهما كَبُرْ

ومَنْ مِنكُم يَوَدُّ أَن يَكُونَ قَصَبَةً خَرسَاءَ صَمَّاءَ، وَجَمِيعُ مَا حَولَهَا يَتَرَنَّمُ مَعًا بِأَنغَامٍ مُتَّفِقَةٍ؟

قَد طَالمَا أُخبِرتُم أنَّ العَمَلَ لَعنَةٌ، وَالشُّغْلَ نَكبَةٌ وَمُصِيبَةٌ[1].

أمَا أنَا فَأَقُولُ لَكُم إِنَّكُم بِالعَمَلِ تُحَقِّقُونَ جُزءًا مِن حُلمِ الأَرضِ البَعِيدِ؛ جُزءًا خُصِّصَ لَكُم عِندَ مِيلاَدِ ذَلكَ الحُلم.

فَإِذَا وَاظَبْتُم[2] عَلَى العَمَلِ النَافِعِ تَفتَحُونَ قُلُوبَكُم بِالحَقِيقَةِ لَمحَبَّةِ الحَيَاةِ.

لأَنَّ مَنْ أَحَبَّ الحَيَاةَ بِالعَمَلِ النَافِعِ تَفتَحُ لَهُ الحَيَاةُ أَعمَاقَهَا، وَتُدنِيه[3] مِن أَبعَدِ أَسرَارِهَا.

***

وَلَكِنْ، إِذَا كُنتُم وَأَنتُم فِي الآلاَمِ تَدعُونَ الوِلادَةَ كَآبَةً، ودَعَامَةَ الجَسَدِ لَعنَةً مَكتُوبَةً عَلَى جِبَاهِكُم، فَإِنَّنِي الحَقَّ أقولُ لَكُم[4]: إِنَّهُ مَا مِن

(١) كما قال الله لآدم: بعرقِ جبينك تأكل خبزك.

(٢) واظبتُم على العمل: دوامتم عليه.

(٣) تُدنيه: تقرِّبه.

(٤) صدى لقول كثيرًا ما ردّده السيد المسيح في عِظاته وتعاليمه.

شَيءٍ يَستَطِيعُ أَنْ يَمحُوَ هَذهِ الكَآبَةَ ويَغسِلَ جِباهَكُم مِن آثارِهَا سِوَى سَعيِكُم وَجِهَادِكُم.

وقَد وَرِثْتُم عَن جُدُودِكُمُ القَولَ إِنَّ الحَياةَ ظُلمَةٌ، فَرُحْتُم في عَهدِ مَشَقَّتِكُم[١] تُرَدِّدُونَ مَا قَالهُ قَبلَكُم جُدُودُكُمُ المُزعِجُونَ.

فَالحَقَّ أَقُولُ لَكُم: إِنَّ الحَياةَ تَكُونُ بِالحَقِيقَةِ ظُلْمَةً حَالِكَةً[٢] إِذَا لم تُرافِقْهَا الحَرَكَةُ.

وَالحَرَكَةَ تَكُونُ عَمياءَ لا بَرَكَةَ فِيهَا إِن لَمْ تُرافِقْهَا المَعرِفَةُ.

وَالمَعرِفَةَ تَكُونُ عَقِيمَةً سَقِيمَةً[٣] إِن لم يُرافِقْهَا العَمَلُ.

وَالعَمَلَ يَكُونُ بَاطِلاً وَبِلا ثَمَرٍ إِن لم يَقْتَرِنْ بِالمَحَبَّةِ، لأَنَّكُم إِذَا اشتَغَلْتُم بِمَحَبَّةٍ فَإِنَّما تَربِطُونَ أَنفُسَكُم وأَفرَادَكُم بَعضَهَا بِبَعضٍ، ويَرتَبِطُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنكُم بِرَبِّه[٤].

***

---

(١) مَشَقَّتكم: عذابكم، تعبكم.

(٢) ظلمة حالكة: ظلمةٌ شديدة السواد.

(٣) عقيمة: باطلة، لا جدوى منها؛ سقيمة: هزيلة، مريضة.

(٤) العمل، المعرفة والمحبة: ثالوث لا يكتمل السموُّ والتراقي إلا به. وهو ثالوث متكامل لا يحسُن لواحد الانطلاق إلا بحافزٍ من الآخرَيْن الباقيَيْن.

وَمَا هُوَ العَمَلُ المَقرُونُ بِالمَحَبَّةِ؟

هُوَ أَن تَحُوكَ الرِدَاءَ بِخُيُوطٍ مَسحُوبَةٍ مِن نَسِيجِ قَلبِـكَ مُفَكِّـرًا أَنَّ حَبِيبَكَ سَيرتَدِي ذَلكَ الرِدَاءَ.

هُـوَ أَن تَبنـيَ البَيـتَ بِحِجَـارَةٍ مَقطُوعَـةٍ مِـن مَقلَـعِ حَنَانِـكَ وإِخلاَصِكَ مُفَكِّرًا أَنَّ حَبِيبَكَ سَيَقطُنُ في ذَلكَ البَيتِ.

هُوَ أَن تَبذُرَ البُذُورَ بِدِقَّـةٍ وَعِنَايَـةٍ، وَتَجمَـعَ الحَـصَادَ بِفَـرَحٍ وَلَـذَّةٍ كَأَنَّكَ تَجمَعُه لِكَي يُقَدَّمَ عَلَى مَائِدَةِ حَبِيبِكَ.

هُوَ أَن تَضَعَ في كُلِّ عَمَلٍ مِن أَعمَالِكَ نَسمَةً مِن رُوحِكَ، وتَثِقَ بِأَنَّ جَمِيعَ الأَموَاتِ الأَطهَارِ مُحِيطُونَ بِكَ يُرَاقِبُونَ ويَتَأَمَّلُونَ[1].

***

وَكَثِيرًا مَا كُنتُ أَسمَعُكُم تُنَاجُونَ أَنفُسَكُم، كَأَنَّكُم في نَومٍ عَمِيـقٍ، قَائِلِينَ: «إِنَّ الذي يَشتَغِلُ بِنَحْتِ الرُخَامِ فَيُوجِدُ مِثَالاً مَحسُوسًا لِنَفسِهِ

(١) هذا الجواب للسؤال المطروح آنفًا هو تفسير شعريٌّ ساحر فتّان، يفترض بالإنسان أن يكون قد تجرّد من كل ماديات الأرض وقشورها، وتطهّر من أدران المادة وأنجاسها، لكي يمارس «العمل» كما يطلبه المصطفى. لهذا نقول إن زمن المصطفى هو زمن الإنسان المتأله، الإنسان الذي يحقِّق الألوهية في نفسه.

في الحَجَرِ الأَصَمِّ هُوَ أَشرَفُ مِنَ الفَلَّاحِ الذي يَحْرُثُ الأَرضَ[1].

«وَالذِي يَستَعِيرُ مِن قُوَسِ قَزَحِ أَلوَانًـا يُحَـوِّلُ بِهَـا قِطعَـةَ النَـسِيجِ الحَقِيرَةَ إلى صُورَةِ إِنـسَانٍ، هُـوَ أَفـضَلُ مِـن الإِسـكَافِ الـذي يَـصنَعُ الأَحذِيَةَ لأَقدَامِنَا»[2].

وَلَكِنَّني أَقُولُ لَكُم- لا في نَومِ اللَيلِ، بَل في يَقَظَةِ الظَهِيرَةِ البَالِغَةِ: إِنَّ الرِيحَ لا تُخَاطِبُ السِندِيَانَةَ الجَبَّارَةَ بِلَهَجَةٍ أَحلَى مِـنَ اللَهجَـةِ التِـي تُخَاطِبُ بِهَا أَحقَرَ أَعشَابِ الأَرضِ.

والعَظِيمُ العَظِيمُ إِنَّمَا هُوَ ذَلكَ الذِي يُحَوِّلُ هَيْمَنَةَ الرِيحِ إِلىَ أُنشُودَةٍ تَزِيدُهَا مَحَبَّتُهُ حَلاوَةً وَعُذُوبَةً[3].

***

أَجَل، إِنَّ العَمَلَ هُوَ الصُورَةُ الظَاهِرَةُ للمَحبَّةِ الكَامِلَة.

فَإِذَا لم تَقدِرْ أَن تَشتَغِلَ بِمَحبَّةٍ وكُنتَ مُتَضَجِّرًا مَلُـولاً، فَالأَجْـدَرُ

(١) إشارة إلى النحّات والفلّاح.

(٢) إشارة إلى الرسّام والإسكافي.

(٣) دعوة إلى المساواة بين البشر. وكأنه يردد بلغة نبويّة شعرية قول الحكمة السائرة: ما من مهنة حقيرة، إنما هناك إنسان حقير. والعكس هو صحيح أيضًا.

بِكَ أَن تَترُكَ عَمَلَكَ وَتَجلِسَ عَلَى دَرَجَاتِ الهَيكَل تَلتَمِسُ صَدَقَةً مِنَ العَمَلَةِ المُشتَغِلينَ بِفَرَحٍ وطُمَأنِينَةٍ.

لأَنَّك إِذَا خَبَزْتَ خُبزًا وأَنتَ لا تَجِدُ لَكَ لَذَّةَ في عَمَلِكَ، فَإِنَّما أَنتَ تَخبزُ عَلقَمًا لا يُشْبِعُ سِوَى نِصفِ مَجَاعَةِ الإِنسَانِ.

وَإِذَا تَذَمَّرتَ وأنتَ تَعصُرُ عِنبَكَ، فَإِنَّ تَذَمُّرَكَ يَدُسُّ لَكَ سَمًّا في الخَمرَةِ المُستَقْطَرَةِ مِن ذَلكَ العَصِيرِ.

وإِن أَنشَدْتَ أَنَاشِيدَ المَلائِكَةِ، ولم تُحِبَّ أَن تكُونَ مُنشِدًا، فَإِنَّما أَنت تَصُمُّ آذَانَ النَاسِ بِأنغَامِكَ عَنِ الإِصغَاءِ إِلَى أَنَاشِيدِ اللَيلِ والنَهَارِ[1].

***

(١) العمل صلاة، والعمل عبادة. فإن أنت لم تحبَّ ربَّك عزفتَ عن الصلاة والعبادة. وإن أنت لم تحبَّ العمل تحوَّلت إلى قصبة فارغة يتلاعب فيها الريح ويَصدُر عنها صفير مزعج.

الفَرَح والتَرَح

ثُمَّ قَالت لَهُ امرَأَةٌ: هَاتِ لنَا شَيئًا عِنِ الفَرَحِ والتَرَحِ.

فأَجَابَ قَائِلاً:

إِنَّ فَرَحَكُم هُو تَرَحُكُم سَاخِرًا...

وَالبِئرَ الوَاحِدَةَ التِي تَستَقُونَ مِنهَا مَاءَ ضِحْكِكُم قَد طَالَمَا مُلِئَتْ بسَخِينِ دُمُوعِكُم.

وهَل في الإِمكَانِ أَن يَكُونَ الحَالُ عَلَى غَيرِ هَذَا المِنوَال؟

فَكُلَّمَا أَعمَلَ وَحشُ الحُزنِ أَنيَابَهُ في أَجسَادِكُم؛ تَضَاعَفَ الفَرَحُ في أَعمَاقِ قُلُوبِكُم.

لأَنَّه أَليسَتِ الكَأسُ التِي تَحفَظُ خَمرَتكُم هِيَ ذَاتَ الكَأسِ التِي أُحرِقَتْ في أَتُونِ الخَزَّافِ قَبلَ أَن بَلَغَتْ إِليكُم؟

أَوَ لَيسَتِ القِيثَارةُ التِي تَزيدُ طُمَأنِينَةِ أَروَاحِكُم هِي نَفسَ الخَشَبِ الذِي قُطِعَ بِالمِدَى والفُؤوسِ؟

فَإِذَا فَرِحتُم فتَأَمَّلُوا مَلِيًّا في أَعمَاقِ قُلُوبِكُم فَتَجِدُوا أَنَّ مَا أَحزَنَكُم قَبلاً يُفرِحُكُمُ الآنَ.



«الفرح والترح»

وَإِذَا أَحَاطَتْ بِكُم جُيُوشُ الكَآبَـةِ فَـارجِعُوا بِبَـصائِرِكُم ثَانِيَـةً إِلَى أعمَاقِ قُلُوبِكُم وَتَأَمَّلُوا جَيِّدًا، تَرَوْا هُنَالِكَ بِالحَقيقَـةِ أَنَّكُـم تَبكُـونَ لِمَـا كُنتُم تَعتَقِدُونَ أَنَّه غَايَةُ مَسرَّاتِكُم عَلَى الأَرضِ.

***

وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ فَرِيقًا مِنكُم يَقُول: «إِنَّ الفَـرَحَ أَعظَـمُ مِـنَ الـتَرَحِ»، فَيُعارِضُه فَرِيقٌ آخَرُ: «كَلَّا، بَلِ التَرَحُ أَعظَمُ مِنَ الفَرَحِ».

أَمَّا أَنَا فَالحَقَّ أَقُولُ لَكُم: إِنَّهـما تَوأَمَـانِ لا يَنفَـصِلانِ، يَأتِيَـانِ مَعًـا وَيَذهَبَانِ مَعًا، فَإِذَا جَلَسَ أَحَدُهما مُنفَرِدًا إِلَى مَائِدَتِكُم، فَلا يَغرُبُ عَـن أَذهَانِكُم أَنَّ رَفيقَه يَكُونُ حِينَئِذٍ مُضطَجِعًا عَلَى أَسِرَّتِكُم.

***

أَجَـل، إِنَّكُـم بِالحَقِيقَـةِ مُعَلَّقُـونَ كَكَفَّتَـي المِيـزَانِ بَـينَ تَـرَحِكُم وَفَرَحِكُم.

وَأَنتُم بَيـنَهما مُتَحَرِّكُـون أَبَـدًا، ولا تَقِـفُ حَـرَكَتُكُم إِلاَّ إِذَا كُنـتُم فَارِغِين فِي أَعمَاقِكُم.

فَإِذَا جَاءَ أَمِينُ خَزَائِنِ الحَيَاةِ يَرفَعُكُم لكَي يَزِنَ ذَهَبَهُ وَفِـضَّتَهُ، فَـلَا تَرتَفِعُ كَفَّةُ فَرَحِكُم، وَلا تَرجَحُ كَفَّـةُ تَـرَحِكُم، بَـل تَثبُتَـانِ عَـلَى حَالـةٍ وَاحِدَةٍ[1].

***

(١) الفرح والحزن متلازمان. لا وجود للواحد دون الآخر. ولا يستطيع أحدنا الحكم على أيٍّ منهما دون أن يعتبر وجود الآخر. فهما من الحياة بمثابة الليل والنهار. فلا ليل دون نهار، ولا نهار دون ليل.

المسَـــاكِن

حِينَئِذٍ دَنَا مِنهُ بَنَّاءٌ وقَالَ لهُ: هَاتِ حَدِّثْنا عَنِ البُيُوتِ.

فَأجَابَ وقَالَ:

ابنِ مِن خَيَالِكَ مَظَلَّةً في الـصَحَراءِ قَبـلَ أَن تَبنِـيَ بَيتًـا في دَاخِـلِ أَسوَارِ المَدِينَةِ.

لأَنَّهُ كَما أنَّ لَكَ بَيتًا مُقبِلاً في شَفَقِ حَيَاتِكَ، كَذَلِكَ للغَرِيبِ الهَـائِمِ فِيكَ بَيتٌ كَبيتِكَ.

إِنَّ بَيتَكَ هُوَ جَسَدُكَ الأَكبَرُ.

يَنمُو في حَرَارَةِ الشَمسِ ويَنَامُ في سَكِينَةِ اللَيلِ. وَكَثِـيرًا مَـا تُرَافِـقُ نَومَهُ الأَحلامُ. أَفَلا يَحلمُ بَيتُك؟ وهَل يَترُكَ الحُلـمُ المَدِينَـةَ ويَـسيرُ إلَى الغَابَةِ أَم إِلَى رَأسِ التَلَّةِ؟

أَوَّاه، لَو أَستَطِيعُ أَن أَجمَـعَ بُيُـوتَكُم بِيَـدي، فَأُبَـدِّدَهَا في الأَحـرَاجِ والرِيَاضِ كَما يَبذُرُ الزَارِعُ زَرْعَهُ في الحُقُولِ!

أَوَدُّ لَو كَانَتِ الأَودِيَةُ شَوَارِعَ لَكُـم، ومَـسَالِكُ الـتِلالِ الخَـضراءِ

أَزِّقَةً تطرُقُهَا أَقدَامُكُم عِوَضًا عَن أَزِقَّـتِكُم وَشَـوارِعِكُم القَـذِرَةِ، ويَـا لَيتكُم تَنشُدُونَ[1] بَعضُكُم بَعضًا بَـينَ الـدَوَالي والكُـرُومِ ثُـمَّ تعـودُونَ حَامِلينَ عِطرَ الأَرضِ في طَيَّاتِ أثوابِكُم.

وَلَكِنْ، هَذِهِ جَمِيعُها تَمَنِّيَاتٌ لَم تَحِنْ سَاعَتُها بَعدُ.

لأَنَّ آبَـاءَكُم وجُـدُودَكُم إِذ خَـافُوا عَلـيكُمُ الـضَيَاعَ والـضَلالَ، جَمَعُوكُم مَعًا لِكَي تَكُونوا قَريبِينَ بَعضُكُم مِـن بَعـضٍ، وسَـيَبقَى هـذَا الخَوفُ مُجَمِّعًا لَكُم زَمَنًا بَعدُ، وَسَتَظَلُّ أَسوَارُ المَدِينَةِ فَاصِـلَةً مَواقِـدَكُم عَن حُقُولِكُم، وَلَكِنْ إِلَى حِينٍ.

***

بَربِّكُم أَخبِرُونِي، يَا أَبنَاء أُورفليس، مَاذَا تَملِكُونَ في هَذهِ البُيُوتِ؟ وأَيُّ شَيءٍ تَحتَفِظُونَ بِهِ في دَاخِلِ هَذِهِ الأَبوَابِ المُوصَدَةِ[2]؟

هَـل عِنـدَكُمُ الـسَلامُ وَهُـوَ القُـوَّةُ الـصَامِتَةُ التِـي تُظهِـرُ ذَاتَكُـمُ الشَدِيدَةَ العَزمِ المُستَتِرَةَ في أَعمَاقِكُم؟

(١) تَنشُدُون: تطلبون.

(٢) الموصَدَة: المغلَقَة.

هَل عِندَكُمُ التذكَارَاتُ، وَهِي القَنَاطِرُ اللاَمِعَةُ التِي تَـصِلُ قُـنَنَ[1] الفِكرِ الإِنسَانِيِّ بَعضَهَا بِبَعضٍ؟

هَـل عِنـدَكُمُ الجَـمالُ[2]، الـذِي يَرتَفِـعُ بِالقَلـبِ مِـن مَـصنُوعَاتِ الخَشَبِ والحِجَارَةِ إلى الجَبَلِ المُقَدَّسِ؟

بِرَبِّكُم أَخبِرُوني، هَل عِندَكُم كُلُّ هَذا في بُيُوتِكُم؟

أَم عِندَكُمُ الرَفَاهِيَةُ[3] فَقَط، والتَحَرُّقُ[4] للرَفَاهِيَةِ المَمزُوجُ بِالطَمَعِ، الرَفَاهِيَةِ التِي تَدخُلُ البَيتَ ضَيفًا، ثُمَّ لا تَلبَثُ أَن تَصِيرَ مَضِيفًا، فَسَيِّدًا عَاتِيًا عَنِيفًا[5].

ثُمَّ تَتَحَوَّلُ إلىَ رَائِضٍ جَبَّارٍ يَتَقَلَّدُ السَوْطَ بِيَمينِهِ والكُلَّابَ بِيَسَارِهِ مُتَّخِذًا رَغَبَاتِكُمُ الفُضلَى أُلعُوبَةً يَتَلَهَّى بِهَا[6]؟

---

(١) قُنن: مفردها قُنَّة: الجبل الصغير. وقُنَّة كلِّ شيء: أعلاهُ.

(٢) الجمال: روائع ما تنتجه النفس والفكر.

(٣) الرفاهية، تقتل الحقيقة، تغطي المعرفة، تبعد الإنسان عن ذاته وعن الله.

(٤) التحرُّق: التشوُّق الشديد.

(٥) عاتيًا: ظالمًا.

(٦) رائض: اسم فاعل من رَاضَ: ذَلَّل وطوَّع. وراضَ المُهرَ: ذلَّـله وطوَّعه وعلَّمه السير. وروَّض: بمعنى راض؛ السَوْط: ما يُضربُ به من جلد مضفور أو نحوه. سُمِّي بـذلك لأنـه يخلـط الـدم باللحم، الكُلاَّب: المهماز.

وَمعَ أَنَّ بنَانَ هَذهِ الرَّفَاهِيَةِ حَرِيرِيُّ المَلْمَسِ فَإِنَّ قَلبَهَا حَدِيدِيٌّ صَلْدٌ(١).

فَهِيَ تُهَدِّئُ مِن حِدَّتِكُم لِكَي تَنامُوا، ثُمَّ تَقِفُ أَمَامَ أَسِرَّتِكُم هَازِئَةً بِكُم وبِجَلالِ أَجسَادِكُم.

تَضحَكُ مِن حَوَاسِّكُم المُدرِكَةِ، وتَطرَحُ بهَا بَينَ الأَشوَاكِ كَأَنَّها أَوْعِيَةٌ سَهْلَةُ الانكِسَارِ.

لأَنَّ التَحَرُّقَ للرَفَاهِيَةِ يَنحَرُ أَهوَاءَ النَفسِ في كَبِدِهَا فَيُرْدِيها قَتِيلَةً، ثُمَّ يَسِيرُ في جَنَازَتِها فَاغِرًا شَدْقَيْهِ مُرغِيًا مُزبِدًا(٢).

***

أَمَّا أَنتُم، يَا أَبنَاءَ الفَضَاءِ(٣)، العَائِشِينَ في الرَاحَةِ والنَعِيمِ غَيرَ المُستَرِيحِينَ، فَإِنَّكُم لَن تُؤخَذُوا بِالأَشرَاكِ(٤) ولَن يَقدِرَ رَائِضٌ عَلَى تَروِيضِكُم.

(١) بنان: أصبع.
(٢) ينحر: يذبح، يقتل؛ يُرديها قتيلة: يوقِعها قتيلة؛ فاغرًا: فاتحًا؛ مُزبدًا: ضاجًّا غضبًا ومُهدِّدًا.
(٣) أبناء الفضاء: هم «المتعطشون إلى أسرار الحياة، التوَّاقون إلى شفافية القداسة».
(٤) الأشراك: مفرده الشَرَك: حبائل الصيد، الفخّ.

لأَنَّ بَيتكُم لَن يَكُونَ مِرسَاةٍ، وَلكنَّهُ سيَكُونُ سَارِيَةً.

كَلَّا، وَلَن يَكُونَ غِشَاءً بَرَّاقًا تُغَطَّى بِهِ الجِراحُ، بَل جَفنًا تُحفَظُ بِهِ العَينُ.

وَأَنتُم لَن تَطوُوا أَجنِحَتكُم لِكَي تَستَطِيعُوا أَن تَدخُلُوا مِنَ الأَبوَابِ، وَلن تَحنُوا رُؤوسَكُم لِئَلاَّ تَنْطَحَ السَقفَ، كَلَّا، وَلَن تَخشَوا أَن تَتَنَفَّسُوا خوفًا مِن أَن تُقَوَّضَ أَسَاسَاتُ الجُدرَانِ وتَسقُطَ عَلَى الأَرضِ.

أَجلِ، وَلَن تَقطُنُوا في القُبورِ التِي بَنَاهَا أَبنَاءُ المَوتِ لأَبنَاءِ الحَيَاةِ.

وَمَع كُلِّ مَا يُزَيِّنُ مَنَازِلَكُم مِنَ الجَلالِ والجَمالِ فَإِنَّها لَن تَستَطِيعَ أَن تَحتَفِظَ بِسِرِّكُم أَو أَن تُؤوي حَنينكُم؛

لأَنَّ غَيرَ المَحدُودِ فِيكُم يَقطُنُ في مَنزِلِ السَماء، الذِي بَوَّابَتُهُ سَحَابَةُ الصَبَاحِ ونَوَافِذُهُ سُكُونُ اللَيلِ وأَنَاشِيدُه(١).

***

(١) ليست البيوت «سوى قشرة تُضاف إلى قشرة الأجساد، فتحجب عن الإنسان أسرار الحياة».

الثِيَــاب

ثُمَّ قَالَ لَهُ الحَائِكَ: هَاتِ حَدِّثْنَا عَنِ الثِيَابِ.

فَأَجَابَ قَائِلاً:

إِنَّ ثِيَـابَكُم تَحجُـبُ الكَثـيرَ مِـن جَمَـالِكُم، ولكِنَّهـا لا تَـستُرُ غَـيرَ الجَمِيلِ.

ومَعَ أَنَّكُم تنشُدُونَ بِثِيابِكُم حُرِيَّةَ التَستُّرِ والانفِرَادِ، فإِنَّها تُقَيِّـدُكُم وتَستَعبِدُكُم.

ويَا لَيتَ في وَسعِكُم أَن تَستَقبِلُوا الشَمسَ والرِيحَ بِثِيَابِ بَشَرَتِكُم عِوَضًا عَن ثِيَابِ مَصَانِعِكُم.

لأَنَّ أَنفَاسَ الحَيَاةِ في أَشِعَّةِ الشَمسِ، وَيَدَ الحَيَاةِ تَـسيرُ مَـعَ مَجَـارِي الرِيَاحِ.

***

يَقولُ بَعضُكُم: «إِنَّ الرِيحَ الشَمالِيَّةَ دُونَ غَيرِهَا قَد حَاكَتِ الثِيَابَ التِي نَلبَسُها».

وأَنَا أَقُولُ لَكُم: «نَعم، إِنَّ الرِيحَ الشَمَالِيَّةَ قَد فَعَلَتْ ذَلـكَ، ولَكِـنَّ العَارَ كَانَ نَوْلًا لهَا، وَلُدُونَةَ العَضَلاتِ كَانَتْ لهَا خَيطًا.

وَعندَمَا فَرَغَتْ مِن عَمَلِها ضَحِكَتْ مِنكُم وهِي تَعصِفُ في قَلبِ الغَابِ.

ولكِنْ، لا يَغرُبُ عَن أَذهَانِكُم أَنَّ الحِشمَةَ هِي تِرْسٌ مَنيعٌ مَتِينٌ للوِقَايَةِ مِن عُيُونِ المُدَنِّسِينَ.

فَإِذَا زَالَ المُدَنِّسُونَ مِنَ الوُجُودِ، أَفَلا تَصِيرُ الحِـشمَةُ قَيـدًا للفِكـرِ وتَلوِيثًا لهُ في حَمأَةِ العُبُودِيَّةِ؟

لِـذَلكَ ضَعُوا نُصْبَ عُيُونِكُم أَنَّ الأَرضَ تَبتَهِجُ بِمُلامَسَةِ أَقدَامِكُمُ العَارِيَةِ، والرِيَاحَ تَتوقُ إلىَ مُلاعَبَةِ شُعورِكُمُ المُستَرسِلَةِ[1].

***

(١) الثياب، كالمساكن، قشرة خارجية، تحجب الحقيقة وتُبعد المعرفة، وتنفي الإنسان إلى صحارى الجهل. وهذا الرأي صدى لقول أحدهم:

ليسَ الجمالُ بأثـواب تـزيننـا
إن الجمالَ جمالُ العلم والأدب

البيع والشراء

ثُمَّ دَنَا مِنهُ تَاجِرٌ وَقَالَ لَهُ: هَاتِ حَدِّثْنَا عَنِ البَيعِ والشِرَاءِ.

فَأَجابَ وقَالَ:

إِنَّ الأَرضَ تُقَدِّمُ لَكُم ثِمارَها، وَلَو عَرَفْتُم كَيفَ تَمْلأُونَ أَيدِيَكُم مِن خَيرَاتِها لَمَا خَبَرْتُم طَعْمَ الحَاجَةِ في حَيَاتِكُم.

لأَنَّكُم بِغَيرِ مُبادَلَةِ عَطَايَا الأَرضِ لَن تَجِدُوا وَفْرًا مِنَ الرِزقِ وَلَن يَشبَعَ جَشَعُكُم[1].

فَيَجْدُرُ بِكُم أَن تُتِمُّوا هَذِهِ المُقَايَضَةَ بِرُوحِ المَحبَّةِ والعَدالَةِ، وإِلاَّ فَإِنَّها تُؤَدِّي بِالبَعضِ مِنكُم إِلىَ الشَراهَةِ، وبِغَيرِهِم إِلىَ الطَمَعِ والمَجاعَة.

***

وإِذا ذهبتُم إِلىَ سَاحَةِ المَدينَةِ، أَيُّها الدائِبُونَ في خِدمَةِ البَحرِ

(١) جَشَعُكم: طمَعُكم؛ وَفْرًا من الرزق: كثيرًا منه.

والحُقُولِ والكُرُومِ، فَاجتَمِعُوا بِالحَاكَـةِ والخَـزَّافِينَ وجَـامِعِي الحَنُـوطِ والطُيُوبِ[1].

وَاضرَعُوا في تِلكَ السَاعَةِ إلى الـرُوحِ المُتَسَلِّطَةِ عَـلَى الأَرضِ، أَن تَحُلَّ عَلَيكُم وتُبَارِكَ مَقَايِيسَكُم ومَوَازِينكُم التِي تُعَيِّنُونَ بِهَـا مِقْـدارَ مَـا تَجري عَلَيهِ مُقَايَضَاتُكُم[2].

وَلا تَأْذَنُوا لِذَوي الأَيدي العَقيمَةِ[3] مِن ذَوي البَطَالَةِ أَنْ يَـشتَرِكُوا في مُعَـامَلاتِكُم لأَنَّـه لا شَيءَ لَهُـم يُتَـاجِرُونَ بِـهِ سِـوَى أَقـوَالِهِم التِـي يَبِيعُونَها لَكُم بِأَعمَالِكُم.

بَل قُولُوا لأَمثَالِ هَؤُلاءِ:

«تَعَالَوْا مَعَنا إلىَ الحَقلِ، أَو فَاذْهَبُوا مَعَ أَولادِنَـا إلىَ البَحْـرِ وَأَلْقُـوا هُنَالِكَ شِبَاكَكُم،

---

(١) الدائبون في خدمة البحر: المستمرون في خدمته بتعب وجَدٍّ. والدائبون في خدمة البحر والحقـول والكروم هم: الصيَّادون والفلاَّحون والكرَّامون؛ الحاكة: الخيَّاطون؛ الخزَّافون: الذين يصنعون الخزَفَ، والخَزَفَ: ما عُمِلَ من الطين وشُوي بالنـار فـصار فَخَّـارًا؛ الحَنُـوط: كُـلُّ طيـبٍ يمنـع الفسادَ، تُحشى به جثةُ الميت بعد تجويفه فتحفظه من البلى طويلاً. وجامع الحَنُـوط هـو الحنَّـاط. والحِناطة هي حرفة الحنَّاط.

(٢) مقايضاتكم: مبادلاتكم، معاوضاتكم. كلُّ شيء في الحياة يتمُّ بمحبة وإن غابت المحبة فـرغ كـلُّ شيء من مضمونه.

(٣) ذوي الأيدي العقيمة: العاطلين عن العمل.

لأَنَّ الأَرضِ والبَحر يَجُودَانِ عَلَيكُم، مَتى عَمِلْتُم، كَما يَجُودَانِ عَلَينَا».

***

وَإِنْ جَاءَكُمُ المُغَنُّونَ والرَّاقِصُونَ والعَازِفُونَ،

فَاشْتَرُوا مِن عَطَايَاهُم ولا تَرفُضُوهم،

لأَنَّهم يَجمَعُون الأَثمارَ والعُطُور نَظيرَكُم، وَمَعَ أَنَّ مَا يُقَدِّمُونَه لَكُم مَصنُوعٌ مِن مَادَّةِ الأَحلاَمِ، فَإِنَّه أَجملُ كِسَاءٍ وأَفضَلُ غِذَاءٍ لِنُفُوسِكُم.

***

وقَبلَ أَن تَبرَحُوا سَاحَةَ المَدِينَةِ انظُرُوا أَلاَّ يَنصَرِفَ أَحَدٌ مِنهَا فَارِغَ اليَدَيْنِ[1].

لأَنَّ الرُوحَ السَيِّدَةَ في الأَرضِ لا تَنَامُ بِطُمَأنِينَةٍ وسَلاَمٍ عَلَى تَمَوُّجَاتِ الرِيَاحِ حتَّى تُشَاهِدَ بعَينَيها أَنَّ الصَغِيرَ فِيكُم قَد نَالَ كَالكَبِيرِ بَينكُم كُلَّ مَا هُوَ في حَاجَةٍ إِليهِ.

***

(١) دعوة إلى تطبيق روح العدالة والتساوي في توزيع الخيرات.

الجرائم والعقوبات

حِينَئِذٍ وَقَفَ أَحَدُ قُضَاةِ المَدِينَةِ وَقَالَ لَهُ: «هَاتِ لنَا خُطبَةً في الجَرائِمِ والعُقُوبَاتِ».

فَأجَابَ وقَالَ:

عِندَمَا تَسيرُ أَرواحُكُم هَائِمَةً فَوقَ الرِيَاحِ،

وتُمْسُونَ مُنفَرِدِينَ، لَيسَ لَكُم مَنْ يَقِيكُم طَوارِئَ السُوءِ، حِينَئِـذٍ تَقتَرِفُونَ الإِثمَ ضِدَّ غَيرِكُم وَضِدَّ أَنفُسِكُم.

ولأَجلِ ذَلِكَ الإِثمِ الذِي تَقتَرِفُونَهُ يَجِبُ أَن تَقرَعُوا بُرهَةً وتَنتَظِرُوا عَلَى بَوَّابَةِ القُدُّوسِ.

***

فَإِنَّ ذَاتَكُمُ الإِلهِيَّةَ بَحرٌ عَظِيمٌ،

كَانت نَقِيَّةً مُنذُ الأَزَلِ وسَتَظَلُّ نَقِيَّةً إِلىَ آخِرِ الدُهُور.

وَهِي كَالأَثِيرِ لا تَرفَعُ إلاَّ ذَوِي الأَجنِحَةِ.

أَجَلْ، إِنَّ ذَاتَكُمُ الإلهِيَّةَ كَالـشَمسِ، لاَ تَعـرِفُ طُـرُقَ المَنَاجِـذِ ولا تَعبَأُ بِأَوكَارِ الأَفَاعِي[1].

غَيرَ أَنَّها لا تَقطُنُ وَحيدَةً في كِيَانِكُم.

لأَنَّ كَثيرًا مِنكُم لا يَزالُ بَشَرًا، وَكَثيرًا غَيرَهُ لم يَصِرْ بَشَرًا بَعـدُ، بَـل هُو مَسْخٌ[2] لا صُورَةَ لَهُ، يَـسيرُ غَـافِلاً في الـضَبَابِ وَهُـو يَنـشُدُ عَهـدَ يَقظَتِه.

فَلا أَوَدُّ أَن أُحَدِّثَكُم الآنَ إلاَّ عَن هَذَا الإِنسَانِ فِيكُم.

لأَنَّ هَذَا الإِنسَانَ - دُونَ ذَاتِكُـمُ الإِلهِيَّـةِ، وَدُونَ المَـسْخِ الهَـائِمِ في الـضَبَابِ- هُـوَ الـذِي يَعـرِفُ الجَـرَائِمَ والعُقُوبَـاتِ عَـلَى الجَـرَائِمِ في كِيَانِكُم.

طَالَمَا سَمِعتُكُم تَتَخَاطَبُونَ فِيمَا بَينَكُم عَمَّـن يَقـتَرِفُ إثـمًا[3]، كَأَنَّـهُ لَيسَ مِنكُم بَل غَرِيبٌ عَنكُم وَدَخِيلٌ فِيمَا بَينَكُم.

---

(١) المناجذ: جمع خُلد، ولا مفرد له من لفظه. والخُلد: نوع من القواضم يعيش تحت الأرض وهـو ليس له عينان ولا أُذنان.
(٢) مَسْخٌ: الذي تحوَّلت صورته إلى صورةٍ أقبح منها.
(٣) يقترف إثمًا: يرتكبه.

وَلكِنَّني الحقَّ أَقُولُ لَكُم: كَما أَنَّ القِدِّيسَ والبَارَّ لا يَستَطِيعَانِ أَن يَتَسَامَيَا فَوقَ الذَاتِ الرَفِيعَةِ في كُلٍّ مِنكُم.

هَكَذا الشِرِّيرُ والضَعِيفُ لا يَستَطِيعَانِ أَن يَنحَدِرا إلىَ أَدنَى مِنَ الذَاتِ الدَنِيئَةِ التِي في كُلِّ وَاحِدٍ مِنكُم.

وكَما أَنَّ وَرَقَةَ الشَجَرَةِ الصَغِيرَةَ لا تَستَطِيعُ أَنْ تُحَوِّلَ لَونَهَا مِنَ الخُضرَة إلىَ الصُفرَةِ إلاَّ بإِرَادَةِ الشَجرَةِ ومَعرِفَتِها الكَامِنَةِ في أَعماقِهَا،

هَكَذَا لا يَستَطِيعُ فَاعِلُ السُوءِ بَينكُم أَن يَقتَرِفَ إِثمًا بِدُونِ إِرَادَتِكُمُ الخَفِيَّةِ وَمَعرِفَتِكُمُ التِي في قُلُوبِكُم، فَإِنَّكُم تَسِيرونَ مَعًا في مَوكِبٍ وَاحِدٍ إلىَ ذَاتِكُمُ الإِلهِيَّةِ.

أَنتُمُ الطَرِيقُ وأَنتُمُ المُطرِقُونَ[1].

فَإِذَا عَثَرَ أَحَدٌ مِنكُم فَإِنَّما تَكُونُ عَثرَتُهُ عِبرَةٌ للقَادِمِينَ وَرَاءَه فَيَجتَنِبُونَ الحَجَرَ الذِي عَثَرَ بِهِ.

أَجَلْ، وَتَكُونُ عَثرَتُهُ تَوبِيخًا للذِينَ يَسِيرُونَ أَمَامَه بِأَقدَامٍ سَرِيعَةٍ ثَابِتَةٍ لأَنَّهم لم يَرفَعُوا حَجَرَ العِثَارِ[2] مِن طَرِيقِهِ.

---

(١) المُطرِقون: الذين يسيرون في الطريق.

(٢) العِثَار: ما عُثِرَ به.

وإِلَيكُم يَا أَبنَاءَ أُورَفليس، هَذِهِ الكَلِمَةَ التِي، وإِنْ حَلَّتْ ثَقِيلَةً عَلَى قُلُوبِكُم، فَهِي الحَقِيقَةُ بِعَينِها:

إِنَّ القَتِيلَ لَيسَ بَرِيئًا مِن جَرِيمَةِ القَتلِ، وَلَيسَ المَسرُوقُ بِلا لَومٍ في سَرِقَتِهِ.

وَلاَ يَستَطِيعُ البَارُّ أَن يَتَبَرَّأَ مِن أَعمَالِ الشِّرِّيرِ،

ولا الطَاهِرُ النَقيُّ اليَدَيْنِ بَرِيءُ الذِمَّةِ مِن قَذَارَةِ المُدَنِّسِينَ[1].

كَثِيرًا مَا يَذهَبُ المُجرِمُ ضَحِيَّةً لِمَنْ وَقَع عَلِيه جُرمُه،

كَمَا يَغلُبُ أَن يَحمِلَ المَحكُومُ عَلِيهِ الأَثقَالَ التِي كَانَ يَجِبُ أَن يَحمِلَها الأَبرِيَاءُ وَغَيرُ المَحكُومِين.

لِذَلكَ، لا تَستَطِيعُونَ أَن تَضَعُوا حَدًّا يَفصِلُ بَينَ الأَشرَارِ والصَالِحِينَ، أَو الأَبرِيَاءِ والمُذنِبِينَ:

لأَنَّهم يَقِفُونَ مَعًا أَمَامَ وَجهِ الشَمسِ، كَمَا أَنَّ الخَيطَ الأَبيَضَ والخَيطَ الأَسوَدَ يُنسَجَانِ مَعًا في نَولٍ وَاحِدٍ،

---

(١) المدنّسين: الخاطئين.

فَإِذَا انقَطَعَ الخَيطُ الأَسـوَدُ يَنظُـرُ الحَائِـكُ إِلَى النَـسِيجِ بِـأَسرِهِ ثُـمَّ يَرجِعُ إِلَى نَولِهِ ويَفحَصُه وَيُنَظِّفهُ.

***

لِذَلكَ إِذَا جَاءَ أَحدُكُم بِالزَوجَةِ الخَائِنَةِ إِلَى المُحَاكَمَةِ، فَلْيَـزِنْ أَوَّلاً قَلبَ زَوجِهَا بِالمَوَازِينِ، وَلْيَقِسْ نَفسَه بِالمَقَايِيسِ ذَاتِها،

وَكُلُّ مَنْ شَـاءَ أَنْ يَلطُـمَ المُجـرِمَ بِيَمِينِـه، يَجـدُرُ بِـهِ أَوَّلاً أَنْ يَنظُـرَ بِبَصِيرَةِ ذِهنِه[1] إِلَى رُوحِ مَنْ أَوقَعَ الجُرمَ عَلِيه.

وَإِن رَغِبَ أَحَدٌ مِـنكُم فِي أَن يَـضَعَ الفَـأسَ عَـلَى أَصـلِ الـشَجَرَةِ الشِرِّيرَةِ بِاسمِ العَدَالَةِ، فَلْيَنْظُرْ أَولاً إِلَى أَعمَاقِ جُذُورِهَا.

وَهُـو، لا شَـكَّ، وَاجِـدٌ أَنَّ جُـذُورَ الـشَجَرَةِ الـشِرِّيرَةِ وجُـذُورَ الصَالحَةِ المُثمِرَةِ، وَغَيرِ المُثمِرةِ كُلِّها، مُـشتَبِكَةٌ[2] مَعًـا فِي قَلـبِ الأَرضِ الصَامِتِ.

أَمَا أَنتُم، أَيُّها القُضاةُ الذِينَ يُرِيدُونَ أَن يَكُونُوا أَبرَارًا، أَيُّ نَوعٍ مِنَ

---

(١) الذِهن: ج أذهان: الفهم والقوّة في العقل.

(٢) مشتبكة: متداخل بعضُها في بعض.

الأَحكَامِ تُصدِرُونَ عَلَى الرَجُلِ الأَمِينِ بِجَسَدِهِ السَارِقِ بِرُوحِهِ؟

أَم أَيُّ عِقَابٍ تُنزِلُونَ بِذَلِكَ الذِي يَقتُلُ الجَسَدَ مَرَّة ولَكِنَّ النَاسَ يَقتُلُونَ رُوحَه أَلفَ مَرَّةٍ[1]؟

وَكَيفَ تُطَارِدُونَ الرَجُلَ، الذِي مَعَ أَنَّه خَدَّاعٌ ظَالِمٌ بِأعمَالِهِ، فَهُو مُوجَعُ القَلبِ، ذَليلٌ، مُهَانٌ بِرُوحِهِ؟

***

أَجَل، كَيفَ تَستَطِيعُونَ أَن تُعاقِبُوا الذِينَ لَهُم مِن تَوبِيخِ ضَمَائِرِهِم، وَهُوَ أَعظَمُ وأَثقَلُ مِن جَرائِمِهِم، أَكبرُ قِصَاصٍ عَلَى الأَرضِ؟

أَليسَ توبِيخُ الضَمِيرِ هُوَ نَفسُ العَدَالَةِ التِي تَتوخَّاهَا الشَرِيعَةُ التِي تَتَظَاهَرونَ بِخِدمَتِهَا؟

فَأَنتُم لاَ تَستَطِيعُونَ أَن تَسكُبُوا بِاسمِ تَوبِيخِ الضَمِيرِ في قُلُوبِ الأَبرِيَاءِ، كَمَا أَنَّكُم لا تَقدِرُونَ أَن تَنزَعُوهُ مِن قُلُوبِ الأَشقِيَاءِ.

---

(١) يقول السيد المسيح: «لا تخافوا الذين يقتلون الجسَدَ ولا يقدرون أن يقتلوا النفس، بل خافوا الذي يقدر أن يُهلك الجسَدَ والنفس معًا في جهنَّم» (متى ١٠:٢٨).

فَهُو يَأتِي لِذَاتِهِ في سَاعَةٍ مِنَ اللَيلِ لا نَنتَظِرُهَا، دَاعِيًا النَاسَ إلىَ النُهُوضِ مِن غَفْلَتِهِم، والتَأَمُّلَ في حَيَاتِهِم وَمَا فِيهَا مِنَ التعدِّيَات والمُخَالفَاتِ.

وَأَنتُم، أَيُّها الرَاغِبُونَ في سَبْرِ غَورِ العَدَالَةِ[1]، كَيفَ تَقدِرُونَ أَن تُدرِكُوا كُنهَهَا[2] إِنْ لم تَنظُرُوا إلىَ جَميعِ الأَعمَالِ بِعَينِ اليَقَظةِ في النُور الكَامِلِ؟

في مِثلِ هَذَا النُورِ تَعرِفُونَ أَنَّ الرَجُلَ المُنتَصِبَ والرَجُلَ المُنبَطِحَ عَلَى الأَرضِ هُمَا بِالحَقِيقَةِ رَجُلٌ وَاحِدٌ، في الشَفَقِ بَينَ لَيلِ ذَاتِهِ المَمسُوخَةِ ونَهارِ ذَاتِهِ الإِلهِيَّةِ،

وَأنَّ حَجَرَ الزَاوِيَةِ في الهَيكَلِ لَيسَ بِأَعظَمَ مِنَ الحَجَرِ الذِي في أَسفَلِ أَسَاسَاتِهِ[3].

---

(١) سَبْر غَوْر العدالة: امتحان غورها لمعرفة مقدارها. معرفة حقيقتها.

(٢) كنهها: حقيقتها.

(٣) * في أعماق كلٍّ منا يكمن الخير إلى جانب الشر.

* نرتكبه من ذنوب تجاه الآخرين، قد يرتكبه الآخرون تجاهنا.
* في كيان كلٍّ منا قدّيس وشرير.
* كل عمل نقوم به له دوافعه.
* يجب أن تتقدم الرحمة على العقوبة.
* إنّما الأعمال بالنيّات ولكل امرئٍ ما نوى.
* العدالة الإنسانية ناقصة إذا هدفت إلى إنقاذ الفرد دون إبراز الحقيقة.

الشَرَائِع

ثُمَّ قَالَ لَهُ مُتَشَرِّعٌ: ومَاذَا تَعتَقِدُ في شَرائِعِنَا أَيُّها المُعَلِّمُ؟

فَأَجَابَ قَائِلاً:

إِنَّكُم تَستَلِذُّونَ أَن تَضَعُوا شَرائِعَ لأَنفُسِكُم،

بَيدَ أَنَّكُم تَستَلِذُّونَ بالأَكثَرِ أَن تكسُرُوهَا وتَتَعَدَّوْا فَرائِضَها.

لِذَلكَ، أَنْتم كَالأَولادِ الذِينَ يَلعَبُونَ عَلَى الشَاطِئ: يَبنُـونَ أَبرَاجًـا عَظِيمَةً مِنَ الرَملِ بِصَبْرٍ وثَبَاتٍ، ثُم لا يَلبَثُونَ أَنْ يَهـدِمُوهَا ضَـاحِكِينَ صَاخِبِينَ.

فَعِندَمَا تَبنُونَ أَبرَاجَكُمُ الرَملِيَّـةُ، يَـأتِي البَحـرُ بِرِمَـالٍ جَديـدَةٍ إلىَ الشَاطِئ.

وَعِندَمَا تَهدِمُونَ أَبرَاجَكُم، يَضحَكُ البَحـرُ مِـنكُم في نَفسِهِ، لأَنَّ البَحرَ يَضحَكُ مِنَ الأَبرِيَاءِ أَبَدًا[1].

***

(١) شرائع البشر عرضة للتأويل والتفسير والاجتهاد.

ولكِنْ، ماذا أَقولُ في مَنْ ليسَتِ الحياةُ بَحرًا في عَقيدَتِهم، بَل ليسَتِ الشَرائعُ التي تَسُنُّها حِكمَةُ الإنسانِ البَالِغَةُ أبراجًا مِنَ الرِمَالِ فقط!

أُولئِكَ هُمُ الذينَ يَحسَبُونَ أنَّ الحياةَ صَخرَةٌ صَلْدَةٌ[1]، وَأَنَّ الشَريعَةَ إِزمِيلٌ حَادٌّ يأخُذُونَهُ بأَيدِيهم لكَي يَنحَتُوا هذهِ الصَخرَةَ على صُورَتِهم ومِثالِهِم!

وماذا أَقولُ في المُقعَدِينَ الذين يَكرَهُونَ الرَاقِصِينَ؟

وفي الثَور الذي يُحِبُّ نِيرَهُ، ويَتَّهِمُ الوَعِلَ والأَيِّلَ والظَبْيَ[2] أَنَّها حَيواناتٌ مُتَمَرِّدَةٌ ناشِزَةٌ.

وفي الأفعَى العتيقَةِ الأيامِ التي لا تَستَطيعُ أن تَخلَعَ جِلدَها، ولذلك تَنبري مُتَّهِمَةً جميعَ الحَيواناتِ بالعُري وقِلَّةِ الحَيَاءِ؟

وفي ذلك الذي يَسبق غَيرَهُ إلى وَليمَةِ العُرسِ، وعِندَما يَملأُ

---

(١) صَلدة: صلبة ملساء.

(٢) الوَعل: تيس الجبل له قرنان قويان منحنيان كسيفين أحدَّين، الأيل: حيوان من ذوات الظلف، للذكور منها قرون متشعِّبة لا تجويف فيها. أما الإناث فلا قرون لها، الظبي: الغزال للذكر والأنثى.

جَوفَه من الأطعِمَةِ، ويَبلُغُ حَدَّه مِنَ النَهَمِ والشَرَاهَةِ يَترُكُ الوَليمةَ ويَذهَبُ في طَرِيقِهِ قائِلاً: إنَّ جَميعَ الوَلائِمِ مُخالِفَاتٌ للنَامُوسِ، وجَميعَ الذِينَ يَجتَمِعُونَ إليهَا مُتعَدُّو الشَريعَةِ.

***

مَاذَا أَقُولُ في أَمثَالِ هَؤُلاءِ؟ إنَّهم كَجَمِيعِ الناسِ يَقِفُونَ في أَشِعَّةِ الشَمسِ، ولكِنَّهُم يُولُونَ الشَمسَ ظُهُورَهم.

فَهُم لِذَلكَ لا يَنظُرُونَ سِوَى أَظلالِهِم، وأَظلالُهُم هِي، عِندَ التَحقيقِ، شَرَائِعُهُمُ المُقَدَّسَةُ.

وهَلِ الشَمسُ في اعتِقَادِهِم سِوىَ مَنْشَإِ الظِلالِ؟

وَهَلِ اعتِرَافُهُم بِالشَرِيعَةِ سِوَى أَنَّهم يَنحَنُونَ ويُطَأطِئُونَ رُؤوسَهم لِكَي يَستَقصُوا[1] أَظلالَهُم عَلَى الأَرضِ؟

أَمَا أَنتُمُ، الذِينَ يَمشُونَ وَهُم يُحَدِّقُونَ في الشَمسِ بِأَجفَانٍ غَيرِ مُرتَعِشَةٍ، فَهَل في الأَرضِ مِن صُورَةٍ تَستَطِيعُ أن تَستَوْقِفَكُم هُنَيهَةً؟

(١) يستقصوا أظلالهم: يتتبَّعُوها.

وأَنتُمْ، المُسَافِرينَ مَعَ الرِيحِ، أَيَّةُ دَوَّارَةٍ[1] مِنَ التِي تَدُلُّ عَلَى اتِّجَاهِ الرِيَاحِ تَقدِرُ أَن تُرشِدَكُم في مَسالِكِكُم؟

ومَا هِيَ الشَرِيعَةُ البَشَرِيَّةُ التِي تُقَيِّدُكُم إذَا كُنتُم لم تُحطِّمُوا غَيرَكُم عَلَى بَابِ سِجنٍ مِن سُجُونِ الإِنسَانِ؟

وَأَيَّةُ شَرَائِعَ تَرهَبُونَ إذَا كُنتُم تَرقُصُونَ وَلكِنَّكُم لا تَتَعَثَّرونَ بِقَيدٍ مِن قُيُودِ العَالَمِ الحَدِيدِيَّةِ؟

ومَنْ هُوَ الرَجُلُ الذِي يَستَطِيعُ أَنْ يَأتِيَ بِكُم إلىَ المُحَاكَمَةِ إِذَا مَزَّقتُم أَثوَابَكُم ولكِنَّكُم لم تَضعُوهَا في طَرِيقِ أَحَدٍ مِنَ النَاسِ؟

***

أَجَلْ، يَا أَبنَاءَ أُورفَلِيسَ، إِنَّكُم تَستَطِيعُونَ أَن تُخمِدُوا صَوتَ الطَبَلِ[2]، وتَحُلُّوا أَوتَارَ القِيثَارةِ؛ ولَكِنْ، مَنْ مِن أَبنَاءِ الإِنسَانِ يَستَطِيعُ أَن يَأمُرَ قُنبَرَةَ[3] السَماءِ أَن تَكُفَّ عَنِ الغِنَاءِ؟

***

(١) الدوَّارة: ما يأتي بعدها مُفسِّرٌ لمعناها.

(٢) تُخمِدُوا صوت الطبل: تُسكتوه.

(٣) قُنبرة: ويقال أيضًا: القُبَّرة، وهي عصفورة دائمة التغريد تفتِّش عن غذائها في الحقول وعلى الطرق.

الحُــرِّيَّة

ثُمَّ قَالَ لَهُ خَطِيبٌ: هَاتِ حَدِّثنَا عَنِ الحُرِّيَّةِ؟

فَأَجَابَ قَائِلاً:

طَالَمَا رَأيتُكُم سَاجِدِينَ عَلَى رُكَبِكُم أَمَامَ أَبوَابِ المَدِينَةِ وإِلَى جَوانِبِ المَوَاقِدِ تَعبُدُونَ حُرِيَّتِكُم.

وأَنتُم بِذَلكَ أَشبَهُ بِالعَبِيدِ الذِينَ يَتَذَلَّلُونَ أَمَامَ سَيِّدِهِم العَسُوفِ الجَبَّارِ، يَمدَحُونَه ويُنشِدُونَ لَهُ وَهُوَ يُعمِلُ السَيفَ فِي رِقَابِهِم.

نَعَمْ ، وفِي غَابَةِ الهَيكَلِ، وَظِلِّ القَلعَةِ، كَثِيرًا مَا رَأيتُ أَشَدَّكُم حُرِّيَّةً يَحمِلُ حُرِيتَهُ كَنِيرٍ ثَقِيلٍ لعُنُقِهِ، وَغُلٍّ[1] مَتِينٍ ليَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ.

رَأَيتُ كلَّ ذَلكَ فَذَابَ قَلبِي في أَعمَاقِ صَدرِي، ونَزَفَتْ دِمَاؤُهُ، لأَنَّكُم لا تَستَطِيعُونَ أَن تَصِيرُوا أَحرَارًا حَتَّى تَتَحَوَّلَ رَغبَتُكُم فِي السَعيِ وَرَاءَ الحُريةِ إلَىَ سِلاَحٍ تَتَسَلَّحُونَ بِهِ. وتَنقَطِعُوا عَنِ التَحدُّثِ

(١) غُلّ: طوق من حديد أو جلد يُجعَل في اليد أو في العنق؛ غابة الهيكل: إشارة إلى الإقطاعية الدينية؛ القلعة: إشارة إلى الإقطاعية السياسية. وكلاهما قاتل للإنسان وللحقيقة وللمعرفة.

بِالحُريةِ كَغَايَتِكُم ومحَجَّتِكُم.

***

إِنَّكُم تَـصِيرُونَ أَحـرَارًا بِالحَقِيقَـةِ إِذَا لم تكُـن أَيَّـامُكُم بِـلا عَمَـلٍ تَعمَلُونَهُ، وَليَالِيكُم بِلا حَاجَةٍ تُفكِّرُونَ بِهَا، أَو كَآبَةٍ تَتَألَّمُونَ لِذِكرَاهَا.

بَل تَكُونُونَ أَحرَارًا عِندَمَا تمَنْطِقُ[1] هُمُومُ الحَيَاةِ وَأَعمَالُهـا أَحقَـاءَكُم بِمِنْطَقَةِ[2] الجِهَادِ والعَمَـلِ، وتُثقِـلُ كَـاهِلَكُم بِالمـصَاعِبِ والمَـصَائِبِ، وَلكِنَّكُم تَنهَضُونَ مِن تحَتِ أَثقَالِهَا عُرَاةً طَلِيقِينَ.

لأَنَّكُم كَيفَ تَستَطِيعُونَ أَن تَرتَفِعُوا إِلىَ مَا فَوقَ أَيَّامِكُم وَلَيـالِيكُم، إِذَا لم تحُطِّمُوا السَلاسِلَ التِي أَنتُم أَنفُسُكم، في فَجرِ إِدرَاكِكُـم، قَيَّـدتُم بِهَا سَاعَةَ ظَهِيرَتِكُمُ الحُرَّةَ؟

إِلاَّ إِنّ مَا تُسَمُّونَه حُرِّيَّةً إِنما هُوَ بِالحَقِيقَةِ أَشَدُّ هَذِهِ السَلاسِلِ قُـوَّةً، وإِن كَانَتْ حَلَقَاتُه تَلمَعُ في نُورِ الشَمسِ وتخَطُفُ أَبصَارَكُم.

***

(١) تمَنْطَقَ: فِعل بُني من المِنطقة ويعني: لبس المنطقة (كتَمَدْرَعَ وتمَنْدَلَ من الدرع والمنديل).
(٢) المِنطقة: ما ينتطق به. وانتطق: شَدَّ وَسَطَه؛ أحقاءكم: مفردها الحَقْو: الخصر والإزار.

ومَاذَا يَجدُرُ بِكُم طَرْحُهُ عَنكُم لِكَي تَصِيروا أَحـرَارًا سِـوَى كِـسَرٍ صَغِيرةٍ رَثَّةٍ في ذَاتِكُمُ البَاليَةِ؟

فَإِن كَانَتْ هَـذِهِ الكِـسَرُ شَرِيعَـةً جَـائِرَةً[1] وَجَـبَ نَـسْخُهَا، لأَنَّهـا شَرِيعَةٌ سَطَّرَتْها يَمينُكُم وَحَفَرَتْها عَلَى جَبِينِكُم.

بَيدَ أَنَّكُم لا تَستَطِيعُونَ أَن تَمحُوهَا عَـن جِبَـاهِكُم بِـإِحرَاقِ كُتُـبِ الشَريعَةِ التِي في دَوَاوِيـنِكُم؛ كـلاَّ، ولا يَـتِمُّ لَكُـم ذَلـكَ بِغَـسْلِ جِبَـاهِ قُضَاتِكُم ولَو سَكَبْتُم عَليهَا كُلَّ مَا في البِحَارِ مِن المِيَاهِ.

وإِنْ كَانَت طَاغِيَةً تَوَدُّونَ خَلعَهُ عَن عَرشِه، فَانظُرُوا أَوَّلاً إِن كَـانَ عَرشُهُ القَائِمُ في أَعمَاقِكُم قَد تَهَدَّمَ.

لأَنَّه كَيفَ يَستَطِيعُ طَاغِيَةٌ أَن يَحكُمَ الأَحرَارَ الفَخُورِينَ، مَا لَم يَكُنِ الطُغيَانُ[2] أَسَاسًا لِحُرِّيَّتِهِم، والعَارُ قَاعِدَةً لِفَخرِهِم؟

وإِن كَانَت هَمًّا تَرغَبُونَ في التَخَلُّص مِنه، فَإِنَّ ذَلكَ الهَـمَّ إِنَّـما أَنـتُم اختَرتُمُوهُ لأَنفُسِكُم، ولَم يَفرُضُهُ أَحَدٌ عَلَيكُم.

---

(١) جائرة: ظالمة.
(٢) الطاغية: الظالم؛ والطغيان: الظُلم.

وإِن كَانَت خَوفًا تُريدُونَ طَردَهُ عَنكُم فَإِنَّ جُرثُومَةَ[1] هَذَا الخَـوفِ مَغرُوسَةٌ في صَميمِ قُلُوبِكُم، ولَيسَتْ في يَدَيْ مَنْ أو مَا تَخافُونَ.

الحَقَّ أَقُولَ لَكُم: إِنَّ جَمِيعَ الأَشيَاءِ تَتَحَرَّكُ في كِيَانِكُم مُتَعَانِقَةً عَـلَى الدَوام عِنَاقًا نِصفِيًّا. كلُّ مَا تَشتَهُونَ ومَـا تَخَـافُون، مَـا تَتَعَـشَّقُونَ ومَـا تَستكرِهُونَ، ومَا تَسعَوْنَ وَرَاءَهُ ومَا تَهرُبُونَ مِنهُ.

جَميعُ هَذِهِ الرَغبَاتِ تَتَحَرَّكُ فِيكُم كَالأنوَارِ والظِلالِ.

فَإِذَا اضمَحَلَّ الظِلُّ ولم يَبقَ لَهُ أَثَرٌ، أَمسَى النُورُ المُتلألئُ ظِلاً لِنُـورٍ آخَرَ سِوَاهُ.

وَهَكَذا الحَالُ في حُرِّيَّتِكُم، إِذَا حَلَّت قُيُودَهَا أَمـسَتْ هِـيَ نَفـسُها قَيدًا لحرِّيَّةٍ أَعظَمَ مِنهَا.

***

(١) جُرثومة الشيء: أَصلُهُ. وتستعمل هذه اللفظة أيضًا للدلالة على الميكروب.

العقل والعاطفة

ثُمَّ طَلبَتْ إليهِ العَرَّافةُ ثانيةً قائلةً: هَاتِ حَدِّثنا عَنِ العَقلِ والعَاطفة.

فَأجابَ قَائِلاً:

كَثِيرًا مَا تَكُونُ نُفُوسُكُم ميدَانًا تُثِير فِيهِ عُقُولُكُم ومَدَارِكُكُم حَربًا عَوَانًا عَلَى أهوَائِكُم وشَهَواتِكُم.

وَكُنتُ أَوَدُّ أَن أَكُونَ صَانِعَ سَلامٍ في نُفُوسِكُم.

فَأُحَوِّلَ مَا فِيكُم مِن تَنَافُرٍ وَخِصَامٍ إلىَ وَحدَةٍ وَسَلامٍ.

ولكِنْ، أَنَّى يَكُونُ لي ذَلِكَ، إِذَا لم تَصِيرُوا أَنتُم صَانِعِي سَلامٍ لِنُفُوسِكُم، ومُحِبِّينَ لجَمِيعِ عَنَاصِرِكُم بِالسَوِيَّةِ؟

إِنَّ العَقلَ والعَاطِفَةَ هُمَا سُكَّانُ[1] النَفسِ وشِرَاعُهَا وهي سَائِرةٌ في بَحرِ هَذَا العَالَمِ.

---

(١) سُكَّان السفينة: دَفّتُها.

فَإِذَا انكَسَرَ سُكَّانُ النَفسِ أَو تَمَـزَّقَ شِراعُهَـا فَإِنَّهـا لا تَـستَطِيعُ أَن تُتَابِعَ سَيرَهَا مُطمَئِنَّةً، بَل إِنَّهَا إِمَّا أَن تُرْغَمَ عَلَى الاستِسلاَمِ إلَى الأَمـوَاجِ تُلاطِمُهَا وَتَتَقَاذَفُهَا يَمنَةً وَيَـسرَةً، أو تُلقِـيَ مِرسَـاتَها[1] فَتَقِـفَ سَـاكِنَةً عَدِيمَةَ الحَرَكَةِ في وَسَطِ البَحرِ.

لأَنَّ العَقلَ إِذَا استَقَلَّ بِالسُلطَانِ عَلَى الجَسَدِ قَيَّدَ عَواطِفَـهُ، كَـما أَنَّ العَاطِفَةَ إِذَا لم يُرَافِقْها العَقلُ كَانت لَهِيبًا يَتَأَجَّجُ لِيُفنِيَهَا.

فَاجْعَلْ نَفسَكَ تَسمُو بِعَقلِكَ إلَى مُستَوىَ عَواطِفِكَ، وَحِينَئِذٍ تَرَى مِنهَا مَا يُطرِبُكَ ويَشرَحُ لَكَ صَدرَكَ.

وَلْيَكُن لَكَ مِن عَقلِكَ دَليلاً وقَائِـدًا لِعَواطِفِـكَ، لِكَـي تَعِـيشَ في كُلِّ يَومٍ بَعدَ مَوتِها وتَنهَضَ كَالعَنقَاءِ[2] مُتَسَامِيَةً فَوقَ رَمادِهَا.

وَأَرغَبُ إِليكُم أَن تُسَاوُوا بَينَ العَقلِ والعَاطِفَةِ كَـما تُـسَاوُونَ بَـينَ ضَيفَيْنِ عَزيزَيْنِ عَلَيكُم.

---

(١) المرساة (Ancre): حديدة تلقيها السفينة في الماء فتوقفها عن الجَرْي.

(٢) العنقاء: مؤنث أعنق، وهو طائر معروف باسمه مجهول بجسمه. وفي الخرافات المصرية أنه طائر مقدس، كان يأتي من بلاد العرب مرة في كل سنة إلى هليوبوليس، فيحرق نفسه على المذبح ثم لا يلبث أن ينهض من وسط الرماد المحترق حيًا جميلاً كـما كـان، ولـذلك كـان عنـدهم رمـزًا إلى الخلود. (المترجم).

فَإِنَّكُم، ولا شَكَّ، لا تُكرِمُونَ الوَاحِدَ أَكثَرَ مِنَ الثَاني، لأَنَّ الـذِي يَعتَنِي بِالواحِدِ ويُهمِلُ الآخَرَ، يَخسَرُ محَبَّةَ الاثنَيْنِ وثِقتَهما.

***

وإِذَا جَلَسْتُم في ظِـلاَلِ الحَـوْر الوَارِفَـةِ، بَـينَ الـتِلالِ الجَميلَـةِ، تُشاطِرُونَ الحُقُولَ والمُـرُوجَ البَعِيـدَةَ سَـلامَهَا وسَـكِينَتَها وصَـفَاءهَا، فَقُولُوا حِينئذٍ في قُلُوبِكم: «إنَّ الله يَستَرِيحُ في العَقلِ».

وَعندَمَا تَعصِفُ العَاصِفَةُ، وتُزعزِعُ الرِيـاحُ أصـولَ الأَشـجَارِ في الأحرَاجِ، وتُعلِنُ الرُعُودُ والبُرُوقُ عَظَمَةَ السَمَوَاتِ، فَقُولُوا حِينَئِذٍ في أَعماقِ قُلُوبِكُم مُتَهَيِّبِينَ خَاشِعينَ: «إنَّ الله يَتَحَرَّكُ في الأَهوَاءِ».

ومَا دُمتُم نَسمَةً مِن رُوحِ الله، ووَرَقَةً في شَجَرَتِهِ، فَأَنتُم أَيضًا يجبُ أَن تَستَرِيحُوا في العَقل، وتَتَحَرَّكُوا في العَوَاطِفِ.

***

الألـــم

ثُمَّ نهضَتْ مِن بَينِ الجَمع امرَأةٌ وقَالَتْ لَهُ: هَاتِ حَدِّثْنَا عَنِ الأَلَم.

فَأجَابَ وقَالَ:

إِنَّ مَا تَشعُرونَ بِهِ مِنَ الأَلَمِ هُو انكِسَارُ القِشرَةِ التِي تُغَلِّفُ إِدرَاكَكُم.

وكَما أَن قِشرَةَ النَواةِ الصَلْدَةَ يَجِبُ أَن تَتَحَطَّمَ وتَبلَى حتَّى يَبرُزَ قَلبُها مِن ظُلمَةِ الأَرضِ إلى نُورِ الشَمسِ.

هَكَذَا أَنتُم أَيضًا يَجِبُ أَن تُحَطِّمَ الآلامُ قُشُورَكُم قَبلَ أَنْ تَعرِفُوا مَعنَى الحَيَاةِ.

لأَنَّكُم لَو استَطَعْتُم أَن تُعِيروا عَجَائِبَ حَيَاتِكُمُ اليَومِيَّةِ حَقَّهَا مِنَ التَأَمُّلِ والتَفكِيرِ، لمَا كُنتُم تَرَوْنَ آلامَكُم أَقَلَّ غَرَابَةً مِن أَفراحِكُم.

بَل كُنتُم تَقبَلُونَ فُصُولَ قُلُوبِكُم، كَما قَد قَبِلْتُم في مَدَى حَيَاتِكُمُ الفُصُولَ التِي مَرَّت في حُقُولِكُم.

وَكُنتُم تَرقُبُونَ وتَتَأَمَّلُونَ بِهُدُوءٍ وسُكُونِ شِتَاءَ أَحزَانِكُم وآلامِكُم.

***

«والألم ماء محيي»



أَنتُم مُخَيَّرُونَ في الكَثيرِ مِن آلامِكُم.

وهَـذَا الكَثِـيرُ مِـن آلامِكُـم هُـو الجَرْعَـةُ الـشَدِيدَةُ المَـرَارَةِ التِـي بِواسِطَتِهَا يَشفِي الطَبيبُ الحَكِيمُ السَاهِرُ في أعماقِكُم أَسـقَامَ نُفُوسِـكُمُ المَرِيضَةِ.

لِذَلكَ، آمِنُوا بِطَبيبِ نُفُوسِكُم، وَثِقُوا بِمَا يَصِفُهُ لَكُـم مِـنَ الـدَوَاءِ الشَافي، وتَنَاوَلُوا جَرْعَتَهُ بِسَكينَةٍ وطُمَأنينَةٍ.

لأَنَّ يَمينَه، وإِن بَدَتْ لَكُم ثَقِيلَةً قَاسِيَةً، فَهي تَتَحـرَّكُ مَقُـودَةً بِيَـدِ غَيرِ المَنظُورِ اللَطِيفَةِ.

والكَـأسَ التِـي يُقَـدِّمُهَا إِلـيكُم، وإِن أَحرَقَـتْ شِـفَاهَكُم، فَهـي مَـصنُوعَةٌ مِـنَ الطِـينِ الـذِي جَبَلَتْـه يَـدَا الخَـزَّافِ الأَزَليِّ بِدُمُوعِـهِ المُقَدَّسَةِ(١).

***

(١) قبول الألم كضرورة ملازمة للوجـود؛ فـلا عَمَـلَ بـلا ألم، ولا محبَّـة بـلا ألم، ولا عطَـاءَ بـلا ألم، والحقيقة لا تبرز إلا بالألم ولا تتَّضِح إلا به.

معرفة النفس

ثُمَّ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: هَاتِ حَدِّثْنَا عَن مَعرِفَةِ النفسِ.

فَأَجَابَ قَائِلاً:

إِنَّ قُلُوبَكُم تَعرِفُ فِي السَكِينَةِ أَسرَارَ الأَيَّامِ واللَيالِي.

ولكِنَّ آذَانَكُم تَتَشَوَّقُ لِسَمَاعِ صَوتِ هَـذِهِ المَعرِفَـةِ الهَابِطَـةِ عَـلَى قُلُوبِكُم.

غَيرَ أَنَّكُم تَوَدُّونَ لَو تَعرِفُونَ بِالأَلفَاظِ والعِبَارَاتِ مَا تَعلَمونَـهُ بِالأَفكَارِ والتَأَمُّلاتِ.

وتَتُوقُونَ إلى أَن تَلمُسُوا بِأَصابِعِكُم جَسَدَ أَحلامِكُمُ العُلْوِيِّ.

***

وَحَسَنٌ أَنَّكُم تَتُوقُونَ إلى جَمِيعِ ذَلكَ.

فَإِنَّ اليَنبُوعَ الكَامِنَ في أَعمَاقِ نُفُوسِكُم سَيَتَفَجَّرُ يَومًا مَا ويَجرِي مُنحَدِرًا إلَى البَحرِ.

والكَنزَ المَطمُورَ في أَعمَاقِكُـم غَـيرِ المُتناهِيَـةِ سَـيُنقَبُ في سَـاعَةٍ لا تَعلمُونها، وتُفتَحُ أَبوابَهُ أَمَامَ عُيونِكُم.

وَلكِنْ، حَذَارِ أَن تَأْخُذوا مَعَكُم مَوَازِينكُم لِكَي تَزِنُوا بِهَا كَنـزَكُم غَيرَ المَعرُوفِ.

كَلاَّ، ولا تَسبُرُوا غَورَ مَعرِفَتِكُم بِالمُرديّ[1] القَـاسِي أَو المِرجَـاسِ[2] اللَيِّنِ.

لأَنَّ الذَاتَ بَحرٌ وَاسِعٌ لا حَدَّ ولا قِيَاسَ لَهُ.

***

أَجَلْ، وَلا تَقُلْ في ذَاتِكَ: «قَد وَجَدْتُ الحَقَّ» بَـل قُـل بِـالأَحرَى: «قَد وَجدتُ حَقًّا».

ولا تَقُل: «قَد وَجَدْتُ طَرِيقَ النَفسِ» بَل قُل بِالأَوْلَى: «قَـد رَأَيـتُ النَفسَ تَمشِي عَلَى طَرِيقِي».

لأَنَّ النَفْسَ تَمشِي عَلَى جَمِيعِ المَسَالِكِ والطُرُقِ.

---

(١) المردى: خشبة تدفع بها السفينة أو يُسبَر بها الغور.
(٢) المرجاس: حجر يشد في حبل ويُدلَّى في الماء ليُعلمَ عمقه.

النَفسُ لا تَمْشي عَلَى حَبْلٍ أَو خَيْطٍ، كَلاَّ، وَلا هِيَ تَنْمُو كَالقَصَبَةِ.

النَفسُ تَتَفَتَّحُ كَزَهرَةِ، اليَشنِينِ[1] ذَاتِ التُوَيْجَاتِ التِي لا يُحصَى عَديدُهَا.

***

(١) اليشنين: نبات يقوم على ساق ولا ورق له. ويسميه المصريون عرائس النيل. ويسمّي أيضًا: «النَيلوفر».

التَعْليم

ثُمَّ قَالَ لَهُ مُعَلِّمٌ: هَاتِ لنَا كلِمةً في التَعليم؛

فَقَالَ:

مَا مِن رَجُلٍ يَستَطِيعُ أَن يُعلِنَ لَكُم شَيئًا غيرَ مَا هُوَ مُستَقِرٌّ في فَجرِ مَعرِفَتِكُم وَأنتُم غافِلونَ عَنه.

أَمَّا المُعَلِّمُ الذي يَسيرُ في ظِلِّ الهَيكَلِ، مُحاطًا بِأَتبَاعِهِ ومُريدِيه، فَهـو لا يُعطي شَيئًا من حِكمَتِهِ، بَل إنَّما يُعطي مِن إيمانِهِ وعَطفِهِ ومَحبَّتِهِ.

لأَنَّهُ إذَا كانَ بِالحَقيقَةِ حَكيمًا، فإنَّـهُ لا يَـأمُرُكُم بـأَن تَـدخُلُوا بيـتَ حِكمَتِهِ، بَل بالأَحرَى يَقُودُكُم إلى عَتبَةِ فِكرِكُم وحِكمَتِكُم.

فإن الفَلَكِيَّ يَستَطيعُ أَن يَسرُدَ لكُم شَيئًا مِن مَعرِفَتِهِ لِنظَـامِ الـسَمَاءِ وَأَجرَامِهِ[1]، وَلكِنَّهُ لا يَقدِرُ أَن يُعطِيكُم مَعرِفَتَهُ.

والموسِيقِيَّ يَستَطِيعُ أَن يُنشِدَكُم أَجمَلَ مَـا في العَـالَمِ مـنَ الأَناشِـيدِ والأَنغَامِ، ولكنَّه لا يَستطيعُ أَن يَمنحَكُمُ الأُذُنَ التِي تَـضبُطُ النِظـامَ في

(١) أجرام السماءِ: أجرام: مفردُها جِرم. والجِرم هو النجم. والأجرام السماوية هي النجوم والكواكب.

النَغَمِ، ولا الصَوتَ الذي يُوجِدُ الأُلفَةَ[1] في الأَلحَانِ.

والرياضيَّ النابغَ في ضَبْطِ الأرقامِ يَستَطيعُ أن يُخبِرَكُم عن حُـدودِ المَوازِينِ والمَقاييسِ وَأَصقَاعِها وخَصَائِصِ كُلٍّ مِنها، ولكنَّه لا يَستَطيعُ أَن يَقُودَكُم إِلىَ مَجَاهِلِها.

لأنَّ الوَحْيَ الذي يَهبِطُ عَلَى رَجُلٍ ما، لا يُعِيرُ جَنَاحَيْهِ لغَيرِهِ.

كَما أنَّ لِكُلٍّ مِنكُم مَقامًا مُنفَرِدًا في مَعرفَةِ الله إيَّاهُ، هَكَذَا يجبُ عَليه أَنْ يَكُونَ مُنفردًا في مَعرِفَتِهِ لله، وفي إِدرَاكِهِ لأسرارِ الأرض»[2].

***

(١) الأُلفة: الصداقة والمؤانسة.

(٢) المعلِّم الحقيقي هو الذي يرشد طالبي العلم إلى معرفة ذواتهم، وبالتالي إلى معرفة الله.

الصَدَاقَة

ثُمَّ قَالَ لَهُ شَابٌّ: هَاتِ حَدِّثْنَا عَنِ الصَدَاقَةِ.

فَأَجَابَ وقَالَ:

إنَّ صَديقَكَ هُوَ كِفَايَةُ حَاجَاتِكَ.

هُوَ حَقُّكَ الذي تَزرَعُهُ بالمَحَبَّةِ وتَحصُدُهُ بالشُكرِ.

هُو مَائِدَتُكَ وَمَوْقِدُكَ.

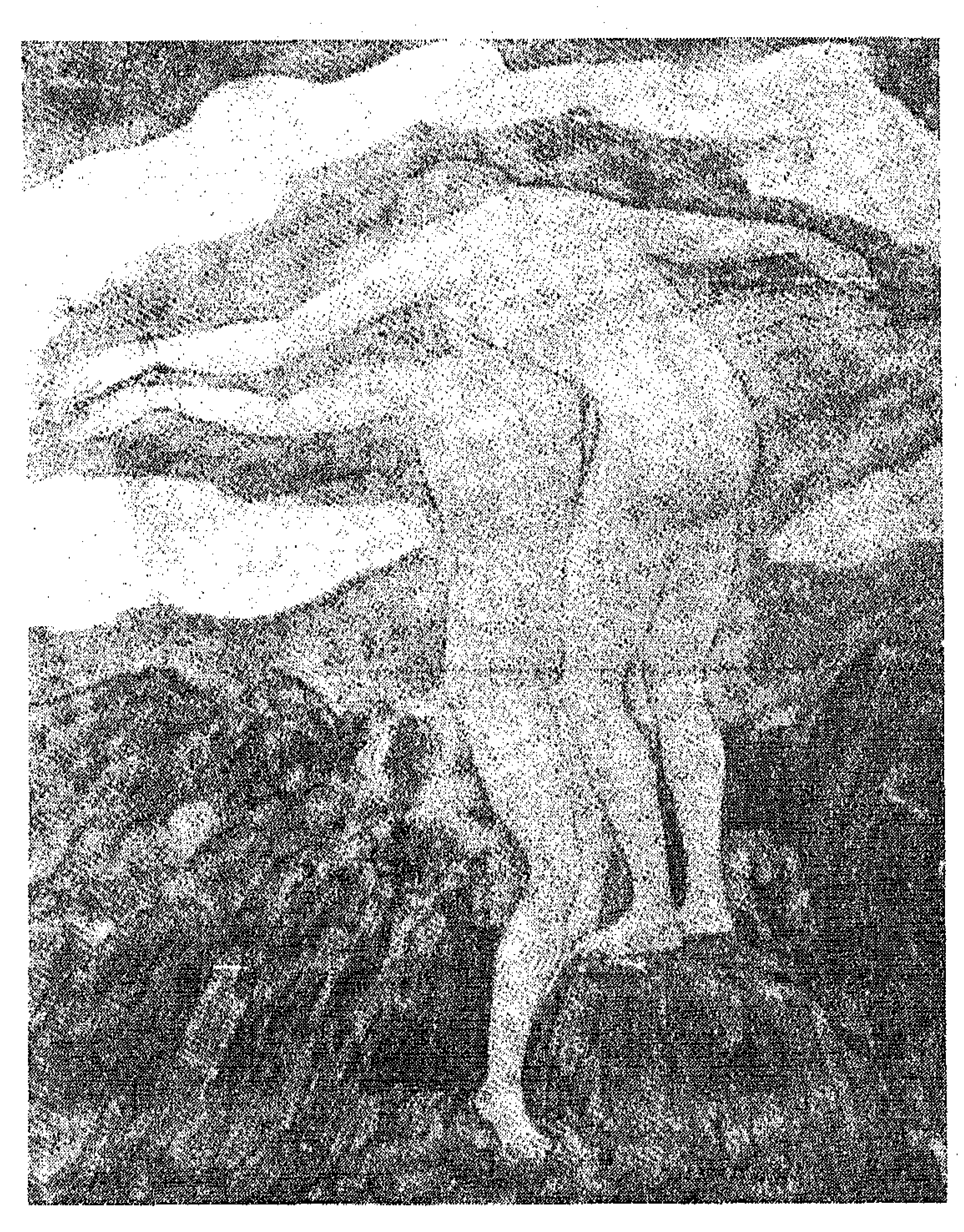
لأَنَّكَ تأتي إليهِ جَائِعًا، وتَسعَى وَراءَه مُستَدفِئًا.

***

فَإِذَا أَوضَحَ لكَ صَديقُكَ فِكرَهُ فَلا تَخشَ أَن تُصَرِّحَ بِـما في فِكـرِكَ مِنَ النَفي، أَو أَن تَحتَفِظَ بما في ذِهنِكَ مِنَ الإيجابِ.

وإِذَا صَمَتَ صَديقُكَ وَلم يَتكَلَّمْ، فلا يَنقَطِعْ قَلبُكَ عَـنِ الإصـغَاءِ إلَى صَوتِ قَلبِه؛

لأنَّ الـصَدَاقَةَ لا تحتَـاجُ إلى الألفَـاظِ والعِبَـاراتِ في إنـماءِ جَميـعِ الأفكَارِ والرَغَبَاتِ والتَمَنِّيَاتِ التي يَشتَرِكُ الأصدِقَاءُ بفَـرحٍ عَظـيمٍ في قَطْفِ ثِمارِهَا اليَانِعَاتِ.



«الصداقـــة»

وإن فَارَقْتَ صَديقَكَ فَلا تَحزَنْ عَلَى فَرَاقِهِ؛

لأنَّ ما تَتَعشَّقُهُ فِيه، أكثرَ مِن كُلِّ شَيءٍ سِواهُ، قَد يَكُونُ في حِينِ غِيَابِهِ أَوضَحَ في عَينَي محبَّتِكَ مِنه في حَينِ حُضُورِهِ. لأَنَّ الجَبلَ يَبدُو لمن يَنظُرُ إليهِ مِنَ السَهلِ أَكثرَ وُضُوحًا مِمَا يَظهَرُ لمن يَتَسَلَّقُهُ.

وَلا يَكُنْ لكُم في الصَداقَةِ من غَايَةٍ تَرجُونَهَا غَيرَ أَن تَزيدُوا في عُمقِ نُفُوسِكُم.

لأنَّ المَحبَّةَ التي لا رَجَاءَ لها سِوى كَشفِ الغِطَاءِ عَن أسرارِهَا، ليسَت محبَّةً، بَل هيَ شَبَكَةٌ تُلقَى في بَحر الحياةِ ولا تُمسِكُ غَيرَ النَافِعِ.

***

وَليَكُنْ أَفضَلُ مَا عِندَكَ لصَديقِكَ.

فإنْ كانَ يَجدُرُ بِهِ أن يَعرِفَ جَزْرَ حَيَاتِكَ.

فالأَجدَرُ بكَ أَيضًا أَن تُظهِرَ لهُ مَدَّهَا.

ومَا قِيمَةُ صَديقِكَ الذي لا تَطلُبُه إلا لتَقضِيَ مَعهُ مَا تُرِيدُ أَن تَقتُلَه مِن وَقتِكَ؟

فَاسْعَ بالأَحرَى إلى الصَديقِ الذي يُحيِي أَيَّامَكَ وَلياليكَ،

لأَنَّهُ وَحدَهُ قَد أُعطِي أن يُكمِلَ حَاجَاتِكَ، لاَ لِفَرَاغِكَ ويُبُوسَتِكَ.

وَلْيَكُن مَلاَكُ الأفـرَاحِ واللَـذَّاتِ المُتبَادَلَـةِ مُرَفرِفًـا فَـوقَ حَـلاوَةِ الصَدَاقَة.

لأَنَّ القَلبَ يَجِـدُ صَـبَاحَهُ في النَـدَى العَـالِقِ بالأَشـياءِ الـصَغِيرَةِ، فَيَنتَعِشُ ويَستَعيدُ قُوَّتَهُ.

***

الحَدِيث

ثُمَّ قَالَ لَهُ عَالِمٌ: هَاتِ حَدِّثْنَا عَنِ الكَلامِ.

فَأَجَابَ وقَالَ:

إِنَّكُم تَتكلَّمُونَ عِندَما تُوصَدُ دُونَكُم أبوابُ السَلامِ مَعَ أَفكَارِكُم.

وعِندَمَا تَعجِزُونَ عِـنِ الـسُكنَى في وَحـدَةِ قُلُـوبِكُم، تَقطُنُـونَ في شِفَاهِكُم، والصوتُ يُلهيكُم ويُسلِيكُم.

وَفي الكَثيرِ مِن كَلامِكُم يَكادُ فِكرُكُم يَقضِي أَلَمًا وَكَآبَةً.

لأَنَّ الفِكرَ طَائِرٌ مِن طُيُورِ الفَضَاءِ، يُمكِنُـه أَنْ يَبـسُطَ جَنَاحَيْـه في قَفَصِ الألفَاظ وَلكنَّه لا يَستَطيعُ أن يَطِيرَ.

إنَّ بينكُم قَومًا يَقـصِدُونَ الثَرثَـارَ المِهـذَارَ، ضَـجَرًا مِـنَ الوَحـدَةِ والانفِرَادِ.

لأَنَّ سَكينَةَ الوَحدَةِ تَبسُطُ أَمَامَ عُيُونِهِم صُورَةً وَاضِـحَةً لـذَواتِهِم العَارِيَةِ، يَرتَعِدونَ لدَى رُؤيتها فَيَهرُبُون مِنهَا:

ومِنكُمُ الذينَ يَتكَلَّمُونَ، ولكنَّهم عَن غَيرِ مَعرِفَةٍ، وبِـدُونِ سَـابِقِ

قَصْدٍ، يُظهِرُونَ حَقيقةً لا يُدرِكُونَها هُم أَنفسُهم.

ومِنكُمُ الذينَ أُودِعَ الحَقُّ في قُلُوبِهِم، ولكـنَّهم يَـأبُونَ أن يُلبِسُوه حُلَّةَ اللَفظِ.

وفي أحضَان هؤلاءِ تَقطُنُ الرُوحُ في هُدُوءٍ وسُكُونٍ.

***

فَإِذَا رأيتَ صَديقَكَ عـلى جَـادَّةِ الطَريـقِ، أَو جَمَعَتْـكَ بِـهِ سَـاحَةُ المَدينَةِ، فَدَعِ الرُوحَ التي فيكَ تُحرِّكُ شَفَتيْكَ وتُدِيرُ لِسَانَكَ.

أَفسِحِ المَجَالَ للصَوتِ الذي في أعمَاقِ صَوتِكَ ليُخاطِبَ أُذُنَه.

لأنَّ نفسَه تحتَفِظُ بِسِرِّ قَلبكَ، كَما يَتَذكَّر الفَمُ طَعْمَ الخَمرَةِ الطيِّبَـةِ، وإنْ نَسِيَ الفِكرُ لونَهَا وتَحطَّمَتِ الكَأسُ التي حَمَلَتْها.

***

الزمان

ثُمَّ قَالَ لَهُ فَلَكِيٌّ: أَيُّهَا المُعلِّمُ، مَا قَولُكَ فِي الزمَانِ؟

فَأَجَابَه قَائِلاً:

أنتَ تُرِيدُ أن تَقِيسَ الزمَانَ غَيرَ المحدودِ، الذي لا قِياسَ لَهُ. وَتَوَدُّ أن تُطَبِّقَ سُلُوكَكَ وتُعَيِّنَ مَسَالِكَ رُوحِكَ على مُقتَضَى السَاعَاتِ والفُصُولِ.

بل أنتَ تُرِيدُ أن تجعَلَ الزمَانَ جَدوَلاً تَجلِسُ على حَافَّتِهِ وتُراقِبَ انسِجَامَ مِيَاهِهِ وتُصغِيَ إلىَ خَرِيرِها.

***

بيدَ أنَّ غَيرَ المقيَّدِ فيكَ بالزَمَانِ يَعرِفُ حَقيقَةَ أنَّ الحياةَ لا تَعرِفُ حُدودَ الزَمانِ.

وأَنْ ليسَ أمسِ سِوَى ذِكرَى اليومِ، وليسَ الغَدُ سِوى حُلمِ اليومِ.

وأنَّ القُوَّةَ التي تَتَرَنَّمُ وتَتَأَمَّلُ فيكَ لا تَزالُ قَاطِنَةً ضِمنَ حُدُودِ

تلكَ اللَحظَةِ الأُولى التي فَرَّقَتِ الكَواكِبَ في الفَضَاءِ.

وهَل بَينكُم رَجُلٌ لا يَشعُرُ أنَّ قُوَّتَهُ عَلَى المَحبَّةِ هِي قُوَّةٌ تَفُوقُ الحُدُودَ؟

بَل مَنْ هُو الذي لا يَشعُرُ بتلكَ المَحبَّةِ، غَيرِ المَحدُودَةِ، المَحصُورَةِ في صَميمِ كِيانِهِ، ولا يَنتَقِلُ مِن فِكرِ مَحبَّةٍ إلى فِكرِ محبَّةٍ أُخرَى، ومِن أَعمالِ مَحبَّةٍ إلى أَعمالِ مَحبَّةٍ غَيرِها؟

والزمانُ، أليسَ الزَمَانُ كالمَحبَّةِ، لا ينقَسِمُ ولا يُستَقْصَى؟

***

وَلَكِنْ، إذَا شِئتُم أَن تَقسُمُوا الزَمانَ إلىَ فُصُولٍ مُختَلِفَةٍ في أَفكَارِكُم، فاجْعَلُوا كُلَّ فَصلٍ من فُصُولِهِ يُحِيطُ بجميعِ الفُصُولِ الأُخرى،

وَاجعَلُوا الحاضِرَ يُعانِقُ الماضِي بالتَذكَاراتِ، والمستَقبَلَ بالحَنينِ والتَشَوُّقاتِ.

***

الخَيْرِ والشَرِّ

ثُمَّ قَالَ لَهُ أَحَدُ شُيُوخِ المَدِينَةِ: هَاتِ حَدِّثْنَا عَنِ الخَيْرِ والشَرِّ.

فَأَجَابَ قَائِلاً:

إنَّني أستَطِيعُ أن أُحَدِّثَكُم عَنِ الخَيرِ، فيكُم، دونَ الشَرِّ.

لأَنَّهُ، أَلَيْسَ الشَرُّ هُو بعَينِهِ الخيرَ المُعَذَّبَ مِن جَرَّاءِ تَعَطُّشِهِ ومجَاعَتِهِ؟

فإنِّي، الحقَّ أقُولُ لَكُم: إنَّ الخيرَ إذَا جَاعَ سَعى إلى الطَعَامِ ولو في الكُهُوفِ المُظلِمَةِ، وإنْ عَطِشَ فإنَّه يَشرَبُ حتَّى من المياهِ الرَاكِدَةِ المُنْتِنَةِ.

أَنتَ صَالِحٌ، يَا صَاحِ، إذَا كُنتَ واحِدًا مَعَ ذَاتِكَ.

وإذَا لم تَكُ[1] وَاحِدًا مَعَ ذَاتِكَ فأنتَ لستَ بالشِرِّيرِ.

لأَنَّ البيتَ المُنقَسِمَ عَلَى ذَاتِهِ ليسَ مَغَارَةً لِلُّصوصِ، ولكنَّه بيتٌ

(١) لم تَكُ: أصلُها: لم تَكُنْ. حُذِفت النون تخفيفًا وترخيمًا وشرطها أن يكون ما بعدها متحرِّكًا أوَّلُهُ.

مُنقَسِمٌ على ذَاتِهِ، لا أكثرَ ولا أَقَلَّ.

والسفينةُ التِي لا سُكَّانَ[1] لها، تَهيمُ في البِحَارِ بينَ الجَزَائِرِ، تُحدِقُ[2] بها الأخطارُ مِن كُلِّ جِهَةٍ، ولكنَّها لا تَغرَقُ إلى قَعرِ البَحرِ.

أنتَ صَالِحٌ، يَا صَاحِ، إذَا جَاهَدْتَ لكَي تُعطِي الناسَ مِن ذاتِكَ،

ولكنَّكَ لستَ بالشِّرِّير إذَا سَعَيْتَ وَرَاءَ مَنفَعَةِ نَفسِكَ.

لأَنَّكَ في سَعْيِكَ وَرَاءَ مَنفَعَةِ نَفسِكَ تُشبِهُ جِذْرَ الشَّجَرةِ الذي يَلتَصِقُ لِكَي يَمْتَصَّ الحَليبَ مِن ثَدْيِهَا.

الحَقَّ أَقولُ لكَ: إنَّ الثَمَرَةَ لا تَستَطِيعُ أَن تَقُولَ للجِذْرِ: «كُنْ مِثلي ناضِجًا جَميلاً، جَوَّادًا، يَبذُل كُلَّ مَا فِيهِ لأجلِ غَيرِهِ».

لأنَّ العَطاءَ حَاجَةٌ مِن حَاجَاتِ الثَمَرَةِ لا تَعِيشُ بدُونِها، كَمَا أَنَّ الأَخْذَ حَاجَةٌ مِن حَاجَاتِ الجِذْرِ لا يَحْيَا بِغيرِها.

***

أنتَ صَالِحٌ، يَا صَاحِ، إذَا كُنتَ تَبلُغُ إلَى كَمَالِ يَقَظَتِكَ في خِطَابِكَ،

(١) سُكَّان السفينة: دَفَّتُها.
(٢) تُحدِق بها الأخطار: تُحيط بها.

بَيْدَ أَنَّكَ لست بالشِرِّيرِ إِذَا نِمْتَ وكانَ لِسانُك يهـذُرُ[1] مِـن غَـير مَرْمَى.

لأَنَّ الكَلامَ، وإنْ كَانَ مَجْلَبَـةً للعَثَـرَاتِ[2]، لا بُـدَّ أَن يُـشَدِّدَ لِـسانًا ضَعيفًا.

أَنتَ صَالحٌ، يَا صَاحِ، إِذَا كُنتَ تَسيرُ إِلىَ مَحَجَّتِكَ[3] راسِخَ العَـزْمِ، جَرِيءَ الخُطى[4].

غَير أَنَّكَ لَسْتَ بالشِرِّيرِ، إِذَا كُنتَ تَمشي إِلى مَحَجَّتِكَ مُتَلَكِّئًا[5].

لأَنَّ العُرْجَ أَنفُسَهم لا يَسيرُونَ إِلى الوَرَاءِ.

ولكنَّك، وأنتَ صَحيحُ القَدَمِ قَوِيُّ الجَسَدِ، انظُرْ أَلَّا تَعـرُجَ أَمَـامَ العُرْجِ وأنتَ تَحسَبُ ذلكَ رِقَّةً وشَفَقَةً!

***

(١) هذر: يهذي، أي: يخلط ويتكلم بما لا ينبغي.
(٢) العثرات: السقطات، الزلاّت. مفردها عَثْرة.
(٣) محجَّتك: المحجَّة: جمعها مَحَاج: جادة الطريق أي وسطها. سُمِّيت بذلك لأنها تُقصد. ومحجَّتـك: قصدُك.
(٤) الخُطى: جمع خُطوة.
(٥) متلكِّئًا: مبطِئًا ومتوقفًا، متقاعسًا.

أنتَ صالحٌ بطُرُقٍ عَديدَةٍ يـا صَـاحِ، وإذَا لم تكُـن صَـالحًا فإنَّـك لستَ بالشِرِّير،

بَل أنتَ كَسُولٌ مُتَراخٍ(١).

ويَا لَيتَ الظِبَـاءَ تَستَطيعُ أَنْ تُعَلِّـم السَلاحِفَ البَطيئَـةَ السُرعَةَ والرَشَاقَةَ!

***

أَجَلْ، إنَّ الخيرَ الذي فيكَ إنما هُـوَ في حَنينِـكَ إلَى ذَاتِـكَ الجَبَّـارَةِ، وهَذا الحنينُ فيكُم جَميعِكم.

غيرَ أَنَّهُ يُشبِهُ في البَعضِ مِنكُم سَيْلاً جَارِفًا يَجري بقُوَّةٍ مُنحَـدِرًا إلَى البَحـر، فَيَحْمِـلُ مَعَـهُ أسرَارَ الـتِلالِ والأَودِيَـةِ وأنَاشِـيدَ الأحـرَاجِ والجِنانِ.

وَهُو في غَيرِهـم أَشبَهُ بجَدْوَلٍ صَغيرٍ يَسِير في مُنبَسَطٍ مِـنَ الأَرضِ يُريقُ مَاءَهُ في الزوَايَا والمُنعَرَجاتِ، ولذلكَ يَطُـولُ بـهِ الزمَـانُ قبـلَ أن يَصِلَ إلىَ الشَاطِئ.

---

(١) مُتَرَاخٍ: مُهمل، مُتراجع. وتراخى في الأصل معناها: فَتَرَ.

ولكِنْ، لا يَقُلْ ذُو الحَنينِ الكَثيرِ إلى ذِي الحَنينِ القَليلِ: «لماذَا أنـتَ كَسيحٌ بَطيءٌ»؟

لأنَّ الـصَالحَ الـصَالحَ لا يَـسأل العُـراةَ: «أيـنَ ثِيَـابُكُم»؟، ولا الغُرَبَاءَ: «أَينَ منازِلُكُم»؟

***

الصَلاة

ثُمَّ قَالَت لَهُ الكاهِنَةُ: هَاتِ حَدِّثْنَا عَنِ الصَلاةِ.

فَأَجَابَ وقَالَ:

إنَّكِ تُصَلِّين في ضِيقَتِكِ وعندَ حَاجَتِكِ:

وَلَكِنْ، حَبَّذا لو أنكِ تُصَلِّينَ وأنتِ في كَمَالِ فَرَحِكِ وَوَفْرَةِ[1] خَيراتِكِ؟

وهَلِ الصَلاةُ غَيرُ تَمَدُّدِ ذاتِكِ في الأثيرِ الحَيِّ؟

فَإذَا كُنتِ تَتَعَزَّيْنَ في أنَ تسكُبي كأسَ ظُلمَتِكِ في الفَضَاءِ، فإنَّكِ، ولا شَكَّ، تَفرَحِينَ في أن تَسكُبي فيهِ فَجْرَ فُؤَادِكِ.

وإذَا كُنتِ لا تَستَطيعينَ أن تُمسِكي عَنِ البُكَاءِ عِندَمَا تَدعُوكِ نَفسُكِ إلى الصَلاةِ، فالأَجدَرُ بنَفسِكِ أن تَنخُسَكِ بِمِنْخَسٍ[2] حَادٍّ مَرَّةً

(١) وفرة خيراتك: كثرتها.

(٢) تنخُسك: مضارع من نَخَسَ: غَرَزَ الجنب أو المؤخّرة بعُودٍ أو غيره؛ والمِنْخَس: ما يُنْخَسُ به، جمعه مناخس.

بَعدَ مَرَّةٍ، عَلَى رُغمِ الدُمُوعِ المُتسَاقِطَةِ عَلَى وَجْنَتَيْكِ، لكَي تَأتِي إلى الصَلاةِ فَرِحَةً باسِمَةً.

وإذا صَلَّيْتِ، فَأنتِ تَرتَفِعينَ برُوحِكِ لكَي تجتَمِعي في تلكَ السَاعَةِ بأرواحِ المُصلِّينَ، الذين لا تَستَطِيعينَ أَن تجتَمِعي بِهِم بغَيرِ الصَلاةِ.

لِذَلكَ فَلتكُن زِيارتُكِ لذَلكَ الهيكلِ غَيرِ المَنظُورِ مَدْعَاةً للهُيامِ السَماوِيِّ والشِرْكَةِ الرُوحِيَّةِ السَعِيدَةِ.

لأَنَّكَ إذَا دَخَلْتِ الهَيكَلَ ولا غَايَةَ لكِ سِوَى السُؤالِ، فإنَّكِ لن تَنَالي شَيئًا.

وإن دَخَلْتِ الهَيكَلَ لكَي تُظهِري وَفْرَةَ اتِّضَاعِكِ وخُشُوعِك، فإنَّك لن تجدي رِفعَةً.

بَل، لَو جِئْتِ الهَيكَلَ وأنتِ تَرجينَ أَن تَلتَمِسي خَيرًا لغَيرِكِ مِنَ الناسِ فإنَّكِ لن تُجابي إلى سُؤالِكِ.

لأَنَّهُ يَكفِيكِ أَن تدخُلي الهَيكَلَ مِن غَيرِ أَن يَرَاكِ أَحَدٌ.

***

«الصـــــلاة»

لا أستطيعُ أَن أُعَلِّمَكِ الصَلاةَ بالألفَاظِ.

لأنَّ الله يُصغِي إلىَ كَلِمَاتِكِ مَا لَمْ يَضَعْها، تَعَالى اسمُه، على شَفتَيْكِ ويَنطِقُ بها بلسَانِكِ.

وَلا أَقدِرُ أَن أُعَلِّمَكِ صَلاةَ البِحَارِ وَالأحرَاجِ والجِبَالِ.

بَيدَ أنَّكِ، وأنتِ ابنةُ الجِبالِ والأحرَاجِ والبِحَارِ،

تَستَطيعينَ أَن تَجِدِي هَذهِ الصَلاةَ مَحفُورَةً عَلَى صَفحَاتِ قَلبِكِ.

فـإِذَا أَصـغَيْتِ في سَـكِينَةِ اللَيـل، سَـمِعتِ الجِبَـالَ والبِحَـارَ والأحرَاجَ، تُصَلّي بهُدُوءٍ وخُشُوعٍ قَائِلَةً:

«رَبَّنا وَإِلَهنا، يَا ذَاتَنا المُجَنَّحَةَ،

«إنَّنا بإرادَتِكَ نُريدُ،

«بِرَغبَتِكَ نَرغَبُ ونَشتَهي،

«بقُدرَتِكَ تُحَوَّلُ ليالينا، وَهي لكَ، إلى أيامٍ هِيَ لكَ أيضًا.

«إنَّنا لا نَستَطيعُ أَن نَلتَمِسَ منكَ حَاجَةً؛

«لأنَّكَ تَعرِفُ حَاجَاتِنا قَبلَ أَن تُولَدَ في أعمَاقِنا».

«أنتَ حَاجَتُنا، وكُلَّمَا زِدْتَنا مِن ذَاتِك، زِدْتَنا مِن كُلِّ شَيءٍ».

اللـــذَّة

حِينَئِذٍ دَنَا مِنهُ نَاسِكٌ يزُورُ المَدينَةَ مَرَّةً في السَنَةِ، وقَـالَ لـهُ: هـاتِ حَدِّثْنَا عَنِ اللَذَّةِ.

فَأجَابَ وقَالَ:

اللَذَّةُ أُنشُودَةُ الحُرّيةِ،

ولكنَّها ليسَتْ حُرّيةً بذَاتِها.

اللَذَّةُ زَهَرَةُ رَغَبَاتِكُم،

ولكنَّها ليسَتْ ثَمَرةً لهَاَ.

اللَذَّةُ عُمقٌ يَنشُدُ عُلُوًّا،

ولكِنْ، لا هِي بالعُمقِ ولا هِي بالعُلُوِّ.

اللَذَّةُ طَائِرٌ قَد أَفلتَ مِن قَفَصِهِ،

ولكنَّها ليسَتْ فَضَاءً حُرًّا طَليقًا.

أَجَلْ، إنَّ اللَذَّةَ بالحقيقةِ أُنشُودَةُ الحُريةِ.

وإنَّهُ لَيُطرِبُني أَن تترنَّمُوا بها في أعماقِ قُلُوبِكُم، ولكِنَّي لا آذَنُ لَكُم أَن تستَسلِمُوا بقُلُوبِكُم للفناءِ.

***

إنَّ فَريقًا مِن أحداثِكُم[1] يَسعَوْنَ وَرَاءَ اللَذَّةِ سَعْيَهم وَرَاءَ كُلِّ شَيءٍ، ولِذَلكَ يُحكَمُ عَليهم بالقِصَاصِ والتأدِيبِ.

أَمَّا أَنا فَلا أُدينُهم، وَلا أَحكُمُ عَليهم؛ وَلكِنَّني أَسأَلُهُم أَن يُفَتِّشوا وَيُنَقِّبُوا.

لأَنَّهم سيَجِدُونَ اللَذَّةَ في تَفتيشِهم، ولكِنَّهم لَن يَجِدُوهَا وَحدَهَا فَقَط.

فإنَّ لها سَبْعَ شَقِيقَاتٍ، أَحقَرُهُنَّ أَوفَرُ جَمالاً مِنهَا.

وأَنتُم، أَلَم تَسمَعُوا بذَلِكَ الرَجُلِ الذي كانَ يَحفِرُ الأرضَ لكَي يَستَخرِجَ الجُذُورَ مِن أعمَاقِها فَوَجَدَ كَنزًا عَظيمًا؟

***

---

(١) أحداثكم: شبابكم.

وَفَرِيقٌ آخَرُ مِن شُيُوخِكُم يَتَذَكَّرُونَ لَذَّاتِ شَبَابِهِم آسفِينَ، كأنَّما هِيَ جَرَائِمُ اقتَرَفُوها في أَوقَاتِ السُكرِ والجَهَالَةِ.

ولكنَّ الأَسَفَ هُو بالحقيقَةِ غَمامةٌ تَغُمُّ الفِكْرَ ولا تُؤَدِّبُهُ، ولِذلكَ يَجدُرُ بِهِم أَن يَتَذَكَّروا لَذَّاتِهم بالحَمدِ والشُكرِ كَما يَتَذَكَّرونَ حَصَادَ[1] الصَيف.

ولكِنْ، إذَا كانَ الأَسَفُ يُعَزِّيهم فلا بَأسَ أَن يَتَعَزَّوا بِهِ.

وهُنالك فَرِيقٌ ثَالِثٌ، مِمَن لَيسُوا بالأحدَاثِ لكَي يُجاهِدُوا مُفَتِّشِينَ عن لَذَّاتٍ جَديدَةٍ. ولا بِالشُيُوخِ لكَي يَتَذَكَّروا لذَّاتِ شَبَابِهِم.

ولكِنَّهم، لِشِدَّةِ خَوفِهِم مِن عَنَاءِ[2] الجهاد في التَفتيش، والأَلَم في التَذكَارات، يُعرِضُونَ عَن جَمِيعِ اللَذَّاتِ[3]، لئِلاَّ يُهمِلُوا الروحَ أو يُسيئُوا إِليهَا.

---

(١) حَصاد الصيف: الحَصاد (بالفتح): الزرع المحصود؛ والحِصاد (بالكسر): أوان الحصد؛ وحَصَدَ: قطع الزرع بالمِنجَل. ويُستعمل هذا الفعل ومشتقاته مجازيًا كما في قولهم: «من زرع الشرَّ حَصَدَ الندامة» و«من زرع الريح حصد العواصف». وحَصاد العمر: جناه. وحَصاد الأيام: أحداثها. وحَصَدَ القومَ بالسيف: قتلهم... إلخ.

(٢) عَناء الجهاد: نَصَبُه وتَعَبُه.

(٣) يُعرِضون عن اللذات: يميلون عنها، يبتعدون عنها، يتجنَّبونها.

غيرَ أَنَّ لَهُم مِن الإعِرَاضِ بعَينِه لَذَّةً لأنفُسِهم.

ولِذلكَ، فَهُم أيضًا يَجدُونَ كَنزًا للذَوَاتِهِم مَعَ أَنَّهم يَحفِـرُونَ لأَجـلِ الجُذُورِ بَأَيدٍ مُرتَعِشَةٍ.

وَلكِنْ، هَل لكَ أن تُخبِرَني، وأنتَ الناسِكُ الحَكيمُ، مَنْ هُو الـذي يَستطِيعُ أَن يُكَدِّرَ على الرُوحِ صَفْوَها؟

أَيستَطِيعُ البُلبُلُ أن يُعَكِّرَ صَفْوَ سَكِينَةِ اللَيلِ، أَمِ الحباحِـبُ[1] نُـورَ الكَواكِب؟

وهَل يَقدِرُ لَهيبُ نَارِكَ أَو دُخَانُها أَن يُثقِلَ كَاهِلَ الرِيحِ؟

أَم هَل تَعتَقِدُ أنَّ الرُوحَ بِرْكَةٌ سَاكِنَةٌ وفي اسْـتِطاعَتِكَ، كُلَّـما خَطَـرَ لكَ، أَن تُزعِجَ هُدُوءَها بعَصَاكَ؟

***

كلَّما أَنْكَرْتَ على ذَاتِكَ التَمَتُّعَ بلَذَّةٍ ما، تُغلِـقُ بيَـدَيْكَ عـلى تلـكَ اللذَّةِ في مُستَودَعاتِ كِيانِكَ.

---

(١) الحُباحِب: ذُبابٌ ذو ألوان يطير في الليل، في ذنبه شعاع كالسِراج، مـا يُـرى في ذنبـه كأنـه نـار. يسمِّيه العامة: سِراج الليل.

ومَن يَدري، هَل تَعودُ اللذَّةُ التي تُهمِلُها اليـومَ فتَتَرَقَّـبُ عَودَتَـكَ أَحَدٌ أن يَخدَعَهُ.

أَجَل، إنَّ جَسَدَك هُو قيثارَةُ نَفسِكَ.

وأنتَ وَحـدَكَ تَـستَطِيعُ أن تُخـرِجَ مِنهـا أنغَامًـا فَتَّانَـةً أو أَصـوَاتًا مُشَوَّشَةً مُضطَرِبَةً.

***

ولَعلَّكَ تَسأَلُ قَلبكَ قَائِلاً: «كَيفَ نَستَطِيعُ أَن نُمَيِّـزَ بـينَ الـصَالِحِ والشِرِّيرِ مِنَ اللذَّاتِ»؟

إذًا، فَاذْهَبْ إلى الحُقُولِ والبَسَاتِينِ، وهُنالِكَ تَتَعَلَّمُ أنَّ لَذَّةَ النَحلـةِ قائِمةٌ في امتِصاصِ العَسَلِ مِنَ الزَهَرةِ.

وكَذَلكَ لَذَّةُ الزَهرةِ تَقُومُ بتَقدِيم عَسَلِها للنَحلَةِ.

والنَحلةُ تَعتَقِدُ أنَّ الزَهرةَ يَنبُوعَ الحياةِ،

والزَهرَةُ تُؤمِنُ بأنَّ النَحلَةَ هيَ رَسُولُ المَحبَّةِ المُحيِيَةِ،

والنَحلَةُ والزَهـرَةُ كِلتاهُمـا تعتَقِـدانِ أنَّ اقتِبـالَ اللَـذَّةِ وَتَقـدِيمَها

حَاجَتانِ لا بُدَّ مِنهُما، وافِتتانٌ لا غِنَى للحَياةِ عَنه.

أَجَلْ، يا أَبنَاءَ أُورفليس، كُونُوا في لَذَّاتِكُم كالنَحلِ والأَزهَارِ.

***

الجمَــــال

ثُمَّ قَالَ لهُ شَاعِرٌ: هَاتِ لنَا شَيئًا عن الجمال.

فَأجَابَه قَائِلاً:

أينَ تُفَتِّشُ عَلَى الجَمالِ؟ وَكَيفَ تَقدِرُ أَن تَهتَدِي إليهِ مَا لَم يَكُـنْ هُـو نفسُه طَرِيقًا لكَ وَهَاديًا؟

وكيفَ تَستَطيعُ أَن تَتَحَدَّثَ عَنِ الجَمالِ مَا لَم يَنسُجْ لكَ ثَوبًـا لائِقًـا لِخطابِكَ؟

***

فَالحَزِينُ أَو المُتَأَلِّمُ يَقُولُ: «الجَمالُ رِقَّـةٌ ولُطـفٌ، وَهـو يَمـشِي بينَنَـا كالأُمِّ الفَتِيَّةِ الحَيِيَةِ من جَلالِهَا».

والغَضُوبُ يقُولُ: «كَلاَّ، بَلِ الجَمَالُ قُوَّةٌ وبَطشٌ، فَهـو كالعَاصِـفَةِ يَهُزُّ الأَرضَ تحتَ أقدامِنَا والسماءَ فَوقَ رُؤوسِنا».

والتَعِبُ المَلُولِ(١) يقُـول: «إنَّ الجَمَال لَطيـفُ المُنَاجَـاةِ، يَـتكَلَّمُ في

(١) المَلُول: الذي أصابه الملل والضجر والسأم.

أَرواحِنا، ويَتموَّجُ صَوتُه في سُكُونِ أَذهانِنَا، كَمَا يرتَعِشُ النُورُ الـضَئيلُ خَوفًا من الظِلِّ الظَلِيلِ».

غَيرَ أنَّ القَلِقَ المُضطَرِبِ يقُولُ: «قَد سَمِعنا الجَـمالَ يَـصيحُ بـأعلَى صَوتِهِ بينَ الجِبَالِ،

ويُرافِقُ صَوتَه وَقْعُ الحَوافِزِ، وخَفَقَانُ الأجنِحَةِ وزَمجَرَةُ الأُسُودِ».

***

وعندَ انتِصَافِ اللَيلِ يَقُولُ حَـارِسُ المَدينَـةِ: «سَـيبزُغُ الجَـمالُ مَـعَ الفَجرِ مِنَ المَشْرِقِ».

وعندَ الظَهيرَةِ يَقُولُ العُمَّالُ وَعَابِرُو السَبِيلِ: «قَد رَأَيْنا الجَمالَ يُطِلُّ على الأرضِ مِن نَوَافِذِ المَغربِ».

***

وفي الشِتَاءِ يقُولُ جَامِعُو الثُلُوج: «سَيأتي الجَمالُ مَـعَ الرَبيـعِ وَهُـو يَقفِزُ على التِلالِ».

وفي الصَيفِ يقُولُ الحَصَّادُونَ: «قَد رَأينَا الجَمالَ يَرقُصُ مع أَوراقِ الخَرِيفِ، وشَاهَدْنا كُومَةً مِن الثَلجِ فَوق شَعرِهِ».

كُلُّ هَذا سَمِعتكُم تَقُولُونَهُ في الجَمالِ.

غيرَ أَنَّكُم بِالحَقيقةِ لَم تَقُولوا فيه كلمةً، وَإِنَّما تَحَدَّثتُم بِحاجَاتِكُم غَيرِ المُكَمَّلَةِ. والجَمالُ ليسَ بالحَاجَةِ غَيرِ المُكَمَّلَةِ، بَل هُوَ انشِغَافٌ وَافتِتانٌ.

أَجَلْ؛ وليسَ الجَمالُ فَمًا مُتَعَطِّشًا أو يَدًا فَارِغَةً مَمْدُودَةً،

بَل هُو قلبٌ مُتَلَهِّبٌ، ونفسٌ مَفتُونَةٌ مَسحُورةٌ.

وليسَ بالصُورَةِ التي تَرغَبُون في رُؤيَتِها أو الأنشُودَةِ التي تَرجُون سَمَاعَهَا.

بَل هُوَ صُورَةٌ تُبصِرُونَها وَلَوْ أغمَضْتُم عُيونَكُم، وأُنشودَةٌ تَسمَعُونَها وَلَو أَغلَقْتُم آذانكم.

وليسَ بالعُصَارَةِ الجَاريةِ في عُروق الأشجارِ، ولا بالجَنَاحِ المُتَعَلِّقِ في المخالِبِ؛

بَل هُوَ بُستانٌ تُزَيِّنُهُ الأزهارَ إلى الأَبَدِ، وَفَوْجٌ مِن الملائِكةِ تُرفرِفُ بأجنِحَتها إلى مُنتهَى الدُهُور.

***

نَعَمْ، يَا أبنَاءَ أُورفليس، إنَّ الجَمالَ هُوَ الحياةُ بعَينها سَافِرَةً[1] عن وَجهِها الطَاهِرِ النَقِيِّ.

ولكِنْ، أنتُمُ الحياةُ، وأنتُمُ الحِجَابُ.

والجَمالُ هُوَ الأبدَّيةُ تَنظُرُ إلى ذاتِهَا في مِرآةٍ.

ولكِنْ، أنتُمُ الأَبدَّيةُ، وأنتُمُ المِرآة.

***

(١) سافِرة: كاشفة، واضحة.

الـــدين

ثُمَّ دَنَا مِنهُ كَاهِنٌ شَيخٌ وقَالَ لَهُ: هَاتِ حَدِّثْنا عَنِ الدِينِ.

فَأجَابَ قَائِلاً:

وهَل تَكَلَّمْتُ اليومَ في مَوضُوعٍ آخَرَ غَيرِ الدِينِ؟

أليسَ الدِينُ كُلَّ ما في الحَياةِ مِنَ الأعمَالِ والتَأَمُّلاتِ؟

أليسَ الدِينُ كُلَّ ما في الحَياةِ مِمَّا ليسَ هُو بالعَمَلِ وَلا بالتَأَمُّلِ، بَـل غَرَابَةٌ وعَجَبٌ يَنبَعانَ مِن جَدَاوِلِ النَفسِ أَبَدًا، وإن عَمِلَـتِ اليَـدانِ في نَحتِ الحِجَارَةِ أو إدارَةِ الأنوال؟

مَنْ يَستَطِيعُ أَن يَفصِلَ أيمانَهُ عن أعمَالِه، وعَقِيدَتَهُ عَن مِهنَتِهِ؟

مَنْ يَستَطِيعُ أَن يبسُطَ سَاعَاتِ عُمرِهِ أَمَام عَينَيه قَائِلاً:

«هَذِهِ لله، وهَذِه لي، هَذِهِ لنَفسِي، وهذِهِ لجَسَدِي»؟

فإنَّ جَمِيعَ سَاعَاتِ الحَياةِ أجنِحَـةٌ تُرفـرِفُ في الفَـضَاءِ مُتَنَقِّلَـةً مِـن ذَاتٍ إلى ذَاتٍ.

وإنَّ مَــنْ يَنظُــرُ إلى فَـضِيلَتِهِ نَظرَتُــه إلى أَفــضَلِ حُلَّــةٍ[1] يَلبِـسُها، فالأجدَرُ به أَن يَسيرَ بينَ النَاسِ عَارِيًا.

لأنَّ الرِيحَ والشَمسَ لا تُمَزِّقَانِ بَشَرَتَهُ.

وَكُلَّ مَنْ يُقَيِّدُ سُلوكَه وتَصَرُّفَه بقُيُودِ الفَلسَفَةِ والتَقليدِ، إنَما يَحبِسُ طَائِرَ نَفسِهِ الغِرِّيدَ في قَفَصٍ مِن حَديدٍ.

لأنَّ أُنــشُودَةَ الحُرِّيَــةِ لا يُمكِــنُ أَن تَخــرُجَ مِــن بَــينِ العَــوارِضِ والقُضبَانِ.

وكُلُّ مَن يَعتَقِدُ أَنَّ العِبَادَةَ نَافِذَةٌ يَفتَحُها ثم يُغلِقهــا، فهــو لم يَبلُــغْ بَعدُ هيكَلَ نَفسِهِ الذي نَوَافِذُهُ مَفتُوحَةٌ مِنَ الفَجرِ إلى الفَجرِ.

***

إنَّ حَيَاتكُمُ اليَومِيَّةَ هِي هَيكَلُكُم وَهي دِيَانتُكُم.

فخُذُوا مَعَكُم كُلَّ ما لكُم عندَمَا تَدخُلُونَ هَيكَلَها.

خُذُوا المِحراثَ والكُورَ والمِطرَقَةَ والطَنبُورَ،

(١) الحُلَّة (بالضم): جمعها حُلَل وحِلال: كل ثوب جديد، أو عمومًا الثوب الساتر للجسد؛ الحَلَّة (بالفتح): الزنبيل الكبير من القصب؛ الحِلَّة (بالكسر): جمعها حِلل وحلال: جهة الشيء.

وكُلّ مَـا لَـدَيْكُم مِـنَ الآلاتِ التـي صَـنَعتُمُوهَا رَغبَـةً في قَـضَاءِ حَاجَاتِكُم أَو سَعْيًا وَراءَ مَسَرَّاتِكُم وَلَذَّاتِكُم.

لأَنَّكُم لا تَستَطِيعُونَ أَن تَرتَفِعُـوا بتَـأَمُّلاتِكُم فَـوقَ أَعمَالِكُـم وَلا تَقدِرُونَ أَن تَنْحَدِروا بِتَصَرُّفَاتِكُم إلى أَدنَى مِن خَيبَاتِكُم.

وَليُرَافِقْكُم جَمِيعُ مَعَارِفِكم مِن أَبنَاءِ الإنسَانِ.

لأَنَّكُم لا تَستَطيعونَ في عِبادَتِكُم أن تُحَلِّقُوا فَـوقَ آمـالهِم، ولا أنْ تَضَعُوا ذَواتِكُم إلى أحقَرَ مِن يَأسِهِمْ.

***

وَإن شِئتُم أَن تَعرِفُوا رَبَّكُم، فَلا تُعنُوا بِحَلِّ الأَحَاجي والأَلغَازِ.

بَل تَأَمَّلُوا فِيما حَولَكُم تَجِدُوهُ لاعبًا مَعَ أَولادِكُم.

وَارفَعُـوا أَنظَـارَكُم إلى الفَـضَاءِ الوَسِـيعِ تُبـصِرُوهُ يَمـشِي في السَحَابِ، وَيَبسُطُ ذِراعَيه في البَرقِ، وَينزِلُ إلى الأَرضِ مَعَ الأَمطَارِ.

تَأَمَّلُوا جَيِّدًا، تَرَوْا رَبَّكُم يَبتَسِمُ بِثُغُورِ الأَزهَارِ، ثُمَّ يَنهَضُ ويُحَـرِّكُ يَدَيْهِ بالأشجَارِ.

***



المَـــوت

ثُمَّ قَالت لَهُ المِطْرَةُ: نَوَدُّ أَن تُحَدِّثنا الآنَ عَنِ المَوْتِ.

فقَالَ لهَا:

إِنَّكُم تُرِيدُونَ أَن تَعرِفُوا أَسرَارَ المَوتِ،

ولكِنْ، كَيفَ تَجِدُونَها إن لم تَسعَوْا إليها في قَلبِ الحَياةِ؟

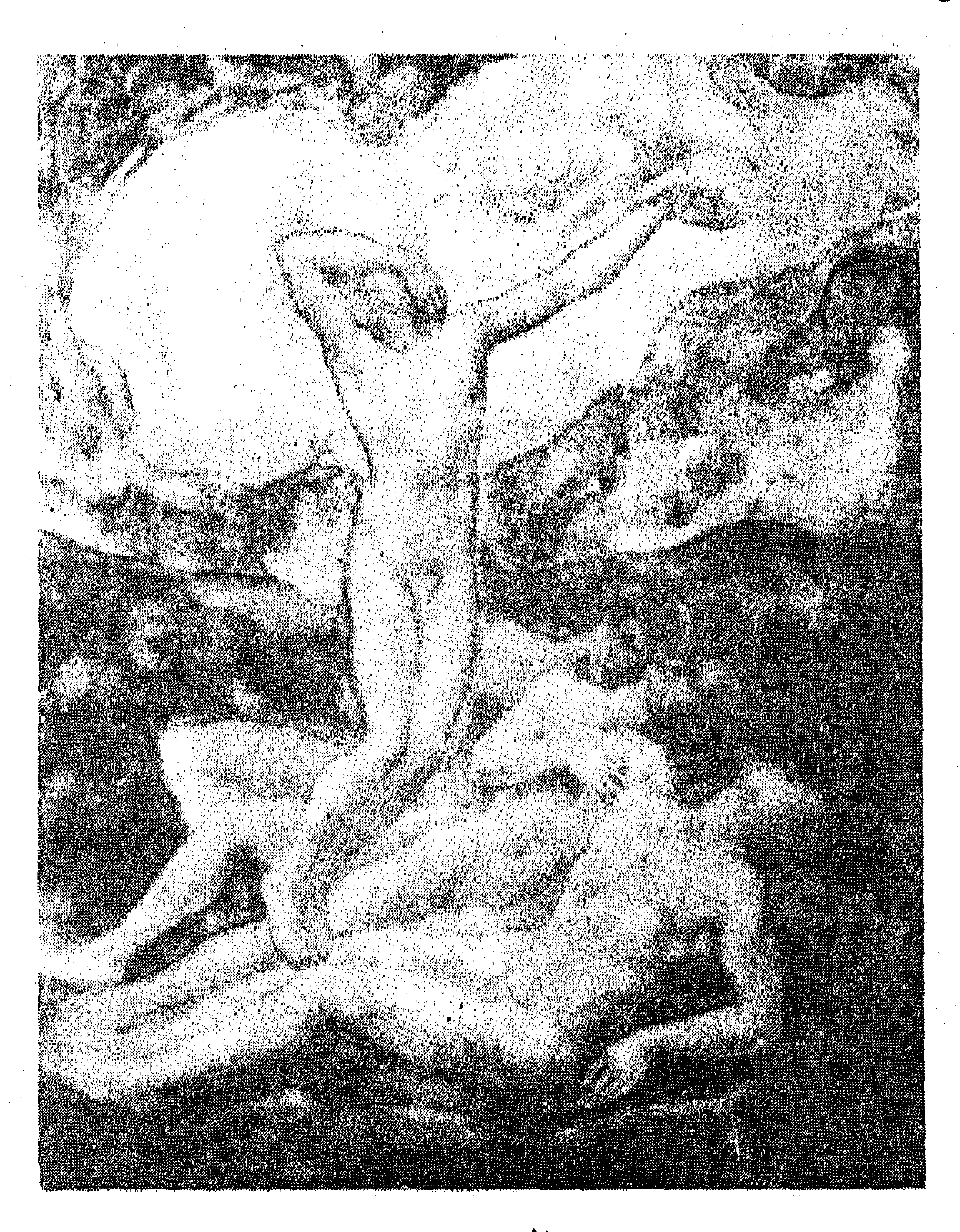
لأنَّ البُومَةَ التي لا تَفتَحُ عَينَيها إلا في الظُلمَةِ، البُومَةَ العَمياءَ عَن نُورِ النَهارِ، لا تَستَطيعُ أَن تَنزعَ الحِجَابَ عَن أَسرَارِ النُورِ.

فإِذَا رَغِبتُم بالحَقيقَةِ في أَن تَنظُرُوا رُوحَ المَوْتِ، فافتَحُوا أَبوابَ قُلُوبِكُم على مَصَارِيعِها لجَسَدِ الحَياةِ.

لأنَّ الحَياةَ والموتَ وَاحِدٌ، كَمَا أَنَّ النَهرَ والبَحرَ وَاحِدٌ أيضًا.

فَفِي أَعمَاقِ آمَالِكُم ورَغَبَاتِكُم تَتَّكِئُ مَعرِفَتُكُمُ الصَامِتَةُ لما وَرَاءَ الحَياةِ.

وكَمَا تَحلُمُ الحُبُوبُ الهَاجِعَةُ تَحتَ الثُلُوجِ بالرَبِيعِ، هَكَذَا تَحلُمُ قُلُوبُكُم بربيعِها.



«المـــــوت»

لِذَلكَ، فَلتكُن ثِقَتُكُم عَظِيمَةً بالأَحلام، لأنَّ بَوَّابَةَ الأَبديَّةِ مُختَفِيَـةٌ فيها.

أمَّا خَوفُكُم مِنَ المَوتِ فَهو أَشبَهُ بارتِجافِ الرَاعِـي الوَاقِـفِ أمـامَ المَلِكِ عِندَمَا يَرفَعُ يَمينَه فَوقَ رَأسِهِ لكَي يُكرِمَـهُ وَيُـنعِمَ عَليـهِ بِوسَـامِ الرِضَا والفَخرِ.

أفَلا يَفرَحُ الرَاعي مَعَ ارتِعَاشِهِ، لأنَّ مَلِكَهُ يُقلِّـدُهُ وِسَـامَ الـشَرَفِ والرِضَا؟

وَلَكِنْ، ألا يَشعُرُ مَعَ ذَلكَ بارتِجافِ جَسَدِهِ وخَفَقانِ قَلبِهِ؟

وهَل مَوْتُ الإنـسَانِ سِـوى وُقُوفِـهِ عَارِيًـا في الـريح وذَوَبانِـهِ في حَرارَةِ الشَمسِ؟

أَم هَلِ انقِطَاعُ التَنَفُسِ، سِـوى تَحريـرِ الـنَفسِ مـن مَـدِّهِ وَجَـزْرِه المُتَواصِلِ، لكَي يَستَطِيعَ أن يَنهَضَ مِن سِجنِهِ وَيُحَلِّقَ في الفَضَاءِ سَاعيًا إلى خَالِقِهِ مِن غَيرِ قَيْدٍ ولا تَعوِيقٍ؟

***

إِنَّكُم تَـستَطيعُونَ أَن تَتَرَنَّمُـوا بالأناشِـيدِ حتَّـى تَـشرَبُوا مِـن نَهـرِ الصَمتِ.

ولا تَستَطِيعُونَ أن تُباشِرُوا الـصُعُودَ إلى الجِبَـالِ حتَّـى تَبلُغُـوا إلى قِنَنِها.

ولَن تَقدِرُوا أَن تَرقُصُوا حتَّى تَتَسَلَّمَ الأَرضُ جَميعَ أَعضَائِكُم.

***

الـــوداع

وكَانَ المساءُ...

فقَالتَ العَرَّافَةُ المِطْرَة: مُبَارَكٌ هَذا اليَوم وهَذا المَكانُ الـذي جَمَعَنَـا بِكَ. ومُبَارَكَةٌ رُوحُكَ التي خَاطَبَتْ أروَاحَنا.

فَأجَـابَ وقَـال: وَهَـلْ أَنـا الـذي تَكَلَّمـتُ؟ أَلم أَكُـنْ أَنـا سَـامِعًا نَظيرَكُم؟

***

ثُمَّ نَزَلَ عَن دَرَجَاتِ الهَيكَلِ وَمَشَى، فَتَبِعَهُ الشَعبُ بأَسِرِه.

وظَلَّ يَجُدُّ في سَيرِه والشَعبُ يَلحَقُ بِهِ حتَّى وَصَلَ إلى المرفأ فَصَعَدَ إلى سَفينَتِهِ ووَقَفَ على ظَهرِها.

حِينَئذٍ رَفَعَ صَوتُه، والشَعبُ يَنظُرُ إليه، وقَالَ لَهم:

يَا أبنَاءَ أُورفليس، إنَّ الرِيحَ تَأمُرُني بأَنْ أُفارِقَكُم.

ومَعَ أَنَّني لَستُ كالرِيحِ عَجُولاً، فَإنَّني مُرْغَمٌ أَن أُطِيعَ أَوامِرَهَا.

لأنّنا نَحنُ الهائِمينَ، الذينَ يَنشُدُونَ أبدًا أَشَـدَّ الطُـرُقِ وَحَـدةً، لا نَبدَأُ أَعمالَ نَهارٍ ما عِندَما نَفرَغُ مِن نَهارٍ غَيرِهِ، ولا يَجِدُنَا شُرُوقُ شَـمسٍ حَيثُ تَرَكَنَا الغُروبُ الذي تَقدَّمَهُ.

لأنَّنا، وإن نَامَتِ الأَرضُ، مُستَيقِظُون نُوالي مَسيرَنا.

***

نَحنُ بُذُورُ نَباتٍ مُتَشَبِّثٍ، وَفي بُلُوغِنـا وَاكتِمالِ نُمُـوِّ قُلُوبِنـا قَـد وُهِبْنَا مِنحَةً للرِيحِ فَتَفَرَّقْنَا على وَجهِ الأَرضِ.

***

قَليلةٌ كانت أَيَّامي بَينكُم، وَأَقَلُّ مِنها كَلِمَاتِي التي تَرَكْتُها لَكُم.

وَلكِنْ، إذَا تَلاشَى صَوتي في آذَانِكُم، وزَالَتْ مَحبَّتي مِـن قُلُـوبِكُم، فَحِينَئذٍ آتي إليكُم سَريعًا.

وَأُخاطِبُكُم ثَانيةً بقَلبٍ أَوفَرَ عَطفًـا مِـن قَلبـي، وشَـفَتَيْنِ أَجْـرَى إثمارًا للرُوحِ مِن شَفَتَيَّ.

أجَلْ، إنَّني سَأرجِعُ مَعَ المَدِّ،

فَإِنْ حَجَبني الموتُ عَـنكُمُ الآنَ وضَـمَّني الـصَمتُ العَظِـيمُ بَـينَ طَيَّاتِ سَكينَتِهِ، فإنَّني سَأَنشُدُ إدراكَكُم مَرَّةً أُخرَى.

وَلَن تَذهَبَ متاعِبي في ذَلكَ الحينِ عَبَثًا.

فَإن كُنتُ قَد خَاطَبْتُكُمُ اليَـومَ بـالحَقِّ الـصَرِيحِ، فـإنَّ هَـذَا الحَـقَّ سَيظهَرُ لَكُم في ذَلكَ اليَومِ بصَوتٍ أَنقَى مِن صَـوتِهِ اليَـومَ، وبكَلِـماتٍ أقرَبَ إلى أَفكَارِكُم مِن كَلماتِهِ اليَومَ.

***

إنَّني مَاضٍ مَعَ الرِيحِ، يَا أَبنَاءَ أُورفلـيس؛ ولكِـنْ، لَـن أَهـبِطَ إلى العَالم السُفلي، إلى الفَراغِ الرَهيبِ.

فَإذا لم يَكُن هَذا اليَومُ قَد أَكمَلَ حَاجَاتِكُم وأَفعَمَكُم مِـن مَحبَّتـي، فَلْيَكُن مَوعِدًا ليَومٍ آخَرَ.

فَإنَّ حَاجَاتِ الإنسَانِ تَتبَدَّلُ، وَلكِنَّ محبَّتَه لا تَتَغَيَّرُ، ومثلَها رَغبَتُـه في أن تُشبعَ المحبَّةُ حَاجَاتِهِ.

فَاعلَمُوا إذن، أَنَّني سَأرجِعُ لَكُم من عَالَمِ الصَمتِ والسَكينَةِ.

لأن الضَبابَ الذي يُفارِقُ الأَرضَ عندَ بُزُوغِ الفَجرِ، من غَـيرِ أن

يَترُكَ سِوى قَطَراتٍ صَغيرَةٍ مِن النَدَى في الحُقُولِ، إنَّما يَرتَفـعُ في الجَـوِّ لكَي يَتَجمَّعَ هُنالـك فيُؤلِّـفَ الـسَحَابِ الـذي لا يَلبَـثُ أن يَعـودَ إلى الأَرضِ مَطرًا غزيرًا.

وقَد كُنتُ بَينكُم مثلَ هَذَا الضَبابِ.

فَفِي سَـكينَةِ اللَيـلِ كُنـتُ أَمشي في شَـوارِعِكُم، وكُنـتُ أَدخُـلُ برُوحي إلى أعماقِ مَنازِلِكُم.

وكَانت نَبضَاتُ قُلُوبِكُم تَتَرَدَّدُ في قَلبي، وسَحَائِبُ لُهاثِكُم تَنتَشِرُ على وَجهي، وقَد عَرَفْتُكُم بِعُجَرِكُم وَبُجَرِكُم[1].

نَعـم، قَـد عَرَفْـتُ فَـرَحَكُم وَحُـزنَكُم، وفي هُجُـوعِكُم[2] كانـت أَحلامُكُـم أَحلامًا لي.

وكثيرًا مَا كنتُ بينكُم بُحَيْرَةً بَينَ الجِبَال.

فكانَتْ تَرتَسِمُ عَلَى صَفَحاتِ مِرآتي قِنَنُكُمُ الشَاهِقَةُ، ومُنحَدَرَاتُكُمُ المُتَعَرِّجَةُ[3]، حتَّى قُطعانُ أفكَارِكم ورَغَبَاتِكُمُ العَابِرَةُ عَليها.

---

(١) عرفتكم بعُجَرِكم وبُجَرِكم: عرفتكم بجميع أحزانكم الظاهرة والباطنة.
(٢) هجوعكم: نومكم.
(٣) المتعرِّجة: الملتوية، غير المستقيمة.

وكانَ ضَحِكُ أولادِكـم يجـري إلى سَـكينَتي مَـعَ مِيـاهِ الجَـداوِلِ، وكَانَ حَنينُ شُبَّانِكُم وشَابَّاتِكُم يَأتي إليَّ مَعَ مَجارِي الأَنهارِ.

مَعَ أنَّ الجَدَاوِلَ والأَنهارَ كَانت تَبلُغُ أَعماقي فإنها لم تكُـن تَنقَطِـعُ البَتَّةَ عَنِ الغِنَاءِ.

***

وَلَكِنْ، هُنالِكَ مَا هُو أَحلَى مِنَ الضَحِكِ وأَعذَبُ مِنَ الحَنينِ بَـينَ مَنْ جَاء إليَّ مِنكُم.

أَلا وَهو الكَائنُ غَيرُ المحدُودِ فِيكُم.

الإنـسَانُ البَـالغُ العَظَمـةِ فِـيكُم، الـذي لَـستُم سِـوى أَنـسِجَةٍ وَعَضَلاتٍ في كِيانِهِ.

والمُرَنَّمُ الذي ليسَ غِناؤُكُم أَمامَ غِنَائِهِ سِوى اختِلاجٍ وَهَينَمةٍ[1].

وأنتُم لا تَعرِفُون العَظَمَةَ إلا بهذَا الإِنسَانِ العَظيمِ الذي فِيكُم.

وَعِندَما رَأيتُه رأيتُ حَقِيقَتكُم، وأَحبَبْتُكُم.

---

(١) الاختلاج: الانتفاضة الخفيفة؛ الهينمة: الصوت الخفيُّ.

لأنَّه، هَل في الوُجُودِ عُلُوٌّ أَو بُعدٌ تَصِلُ إليهِمَا المَحبَّةُ ولا يُحيطُ بِهِما في دَائِرَةِ كِيانِهِ العَظيمَةِ الاتِّسَاعِ؟

أَم هَل هُنالك تَصَوُّرَاتٌ أَو تَمَنِّياتٌ أَو أَحلامٌ تَستَطِيعُ أَن تَسمُوَ فَتبلُغَ أَقصَى ارتِفَاعِهِ؟

أَجَلْ، إنَّ هَذا الإنِسَانَ العَظِيمَ هُو بِالحَقِيقَةِ كالسِندِيَانَةِ الجَبَّارَةِ المُغَطَّاةِ بِبَرَاعِمِ التُفَّاحِ الجَميلةِ.

فَقُدرَتُه تُقَيِّدُكُم بِالأَرضِ، وشَذَاهُ يَرفَعُكُم إلى أَعَالِي الفَضَاءِ، وفي عَزْمِهِ وصَبرِهِ عَلَى عَوَاصِفِ الطَبيعَةِ أَنتُم خَالِدُونَ.

***

قَد أُخبِرْتُم فِيمَا مَضَى أَنَّكُم كالسِلسِلَةِ، ضُعفَاءُ كأَضعَفِ حَلْقَةٍ في كِيَانِكُم.

غَيرَ أَنَّ هَذا إِنَّما هُو نِصفُ الحَقيقَةِ. فأَنتُم أَيضًا أَقويَاءُ كَأَقوَى حَلْقَةٍ مِن سِلسِلَتِكُم.

لأَنَّنا إِذَا حَكَمْنا عَليكُم بِأَصغَرِ أَعمالِكُم كُنَّا كَمَنْ يَحكُمُ عَلى قُوَّةِ البَحرِ بِما في زَبَدِهِ مِنَ الضُعفِ وسُرعَةِ الزَوَالِ.

وَإن حَكَمْنَا عَليكُم بِخَيْبَتِكُم كُنَّـا كَمَـن يَلُـومُ الفُـصُولَ لتَعَاقُبِهـا وعَدَمِ ثَبَاتِها.

***

أَجَلْ، إنَّكُم بِالحَقيقَةِ كَالأُوقيَانوسِ العَظيمِ.

فَمَعَ أنَّ سُفُنًا كَبيرةً تَنتَظِرُ مَدَّ البَحر وجَزْرَه على شَوَاطِئِكُم، فـأَنتُم كَالأُوقيَانوسِ، لا تَستَطيعُونَ أن تُعجِّلُوا مَدّكُم وجَزْرَكُم.

وأنتُم كَالفُصولِ أَيضًا، يَا أَبنَاءَ أُورفليس،

فإنَّكُم تُنكِرُونَ رَبيعَكُم في شِتائِكُم؛

ولكِنَّ الربيعَ لا يُنكِرُكُم، بَل يَبتَسِمُ لَكُـم في غَفلَتِـهِ، مِـن غَـيرِ أن يغْضَبَ أَو يَتَعَكَّرَ صَفْوُه.

وَلا يَخْطُرْ لَكُم أنِّي أَقُولُ لَكُم هَذا لِكَي أَحمِلَكُـم عـلى أَنْ تهمِـسُوا بَعضُكُم لبَعضٍ قَائِلين: «قَد أَجادَ في مَديحِنا والثنَاءِ عَلينَا، وَلَم يَر سِوى الصَالحِ فِينَا».

فإنَّني أَنقُلُ إِليكُم بِأَلفَاظِي، مَا تُدرِكُونَه أَنتُم بِأَفكارِكُم».

وهَلِ المَعرِفَةُ اللَفظِيَّةُ سِوى ظِلٍّ للمَعرِفَةِ غيرِ اللَفظِيَّةِ؟

لأنَّ أَفكَارَكُم وكَلِماتي مَا هِي، عِندَ التَحقيقِ، سِوى أَمواجٍ تَقـذِفُ بهَا بُحَيْرَةُ الذَاكِرَةِ المحتُومَةِ التي تَحتَفِظُ بدَوَاوِينِ مَاضِينَا ومَاجريَاتِه[1]،

وحَـوادِثِ الأَيَّـامِ المُنـصَرِّمَةِ[2]، عِنـدَما لم تَكُـنِ الأَرضُ تَعرِفُنـا، وكَانت تَجهَلُ ذَاتهَا أيضًا،

وَأحلامِ اللَيالي عِندَما كَانتِ الأَرضُ خَرِبَةً خَاوِيَةً خَالِيَةً.

***

قَد جَاءَكُمُ الحُكَماءُ قَبلي لِكَي يُقَدِّمُوا لَكُم مِن حِكمَـتِهم، أمَّـا أَنـا فَقَد أَتيتُ إِليكُم لكَي أَغتَرِفَ[3] مِن مَعينِ حِكمَتِكُم.

وهَا أَنذَا قَد وَجَدتُ مَا هُو أَعظَمُ مِنَ الحِكمَةِ:

قَد وَجَدْتُ رُوحًـا مُلتَهِبَـةً فِـيكُم مَـا بَرِحَـتْ تَـستَزِيدُ مِـن جَمْـعِ مُبَعْثَرَاتِ ذَاتِها،

(١) ماجرياته: كلمة مركَّبة من «ما جرى له»، أي: ما جرى فيه من حوادث.
(٢) المنصرِّمة: الماضية.
(٣) أغترفُ: أَغترفُ الماء بيدي؛ آخذ منه بيدي.

غَـيرَ أَنَّكُـم كُنتُم ومَـا زِلـتُم غَـافِلِينَ عَـنِ اتِّسَاعها وتَعَاظُمِهـا، تَنُوحُونَ وتبكُونَ على أَيَّامِكُمُ الزَائِلَةِ.

فإِنَّ الحَياةَ تُفَتِّشُ عَنِ الحَيَاةِ في أَجسَامِ الذين يَخَافُونَ القُبُورَ.

***

ولكِنْ، لا قُبُورَ هَهُنا.

لأَنَّ هَذهِ الجِبالَ والسُهولُ إِنَّما هي بِالحَقيقَةِ سَرِيرٌ ومَرقَاةٌ.

فإِذَا قَادَتْكُم خُطوَاتُكُم إِلى الحَقلِ الذي وَضَعتُم فِيهِ أَسلافَكُم، فتَأَمَّلوا جَيِّدًا في جَميعِ جِهَاتِهِ، تَرَوْا ذَواتِكُم تَرقُصُون مَعَ أَولادِكُم جَنبًا إِلى جَنبٍ.

فإِنَّني، الحقَّ أَقولُ لَكُم: إِنَّكُم كَثيرًا مَا تَفرَحُونَ وأَنتم لا تعرِفون.

***

وَآخَرُونَ جَاؤوا إِليكُم وعَلَّلُوكُم بالمَوَاعِيدِ الذَهَبِيَّـةِ التي تَبنُـونَ عَليهَا صُرُوحَ إِيمانِكُم، فوَهَبتُمُوهُم ثَروةً وَقُوَّةً وعَظَمَةً.

أَمَّا أَنا فَقَد أَعطَيْتُكُم أَحقَرَ مَوعِدٍ، وَلكِنَّكُم أَظهَرْتُم نَحْوي أَرْيحِيَّةً

لم تُظهِرُوهَا لِسوَايَ.

فَقَد أَعطَيْتُمُوني تَعَطُّشِي الشَديدَ للحَياةِ.

وإنِّي أُصارِحُكُمُ القَولَ: إنَّه مَا مِن عَطِيَّةٍ في هَذَا العَالَمِ أَجزَلُ فَائِدَةً للإِنسَانِ مِنَ العَطِيَّةِ التي تُحوِّلُ كُلَّ مَا في كِيانِهِ مِنَ الأَميَالِ والرَغبَاتِ إلى شَفَتَيْنِ مُحتَرِقَتَيْنِ عَطَشًا، وتَجعلُ حَيَاتَهُ جَميعَها يَنبُوعًا حَيًّا بَاقيًا.

وهُوذَا فَخرِي وأَجري،

في أَيةِ سَاعَةٍ جِئتُ اليَنبُوعَ مُتَعَطِّشًا، أَجِدُ المَاءَ الحَيَّ المُتَدَفِّقَ مِن فَمِ اليَنبُوعِ عَطشَانَ أيضًا.

فيَشرَبُني هَذَا المَاءُ كَما أَشرَبُهُ.

***

وقَد خُيِّلَ إلى البَعضِ مِنكُم أَنَّني عَيُوفٌ[1] حَيِيٌ فَلا أَقبلُ عَطِيَّةً مِن عَطَايَاكُم.

عَلى أَنَّني بِالحَقيقَةِ أَكرَهُ قُبُولَ الأُجُورِ، لكِنَّني لا أَرفُضُ العَطَايا.

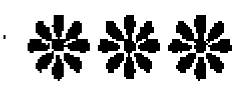
(١) عَيُوفٌ: كاره للشيء.



وإنَّه غَيرُ خَافٍ عَليكُم أَنَّني كُنتُ أَتَقَوَّتُ بِـأثمارِ العُلَّيْـقِ والتُـوتِ بـينَ الـتِلالِ، في حِـينَ أَنَّكُـم كُنـتُم تَرغَبُـون في أَن أُجالِـسَكُم حَـول مَوَائِدِكُم.

وَكُنتُ أَنامُ في رُواقِ الهَيكَلِ في حِينَ أنَّ كُلًّا مِنكُم كَـان يَفـرَحُ لَـو يُتاحُ لَه أن يُؤوِيني في بَيتِهِ.

ولَكِنْ، أليسَتْ محبَّتُكُمُ الشَدِيدَةُ المَمزُوجَةُ بِدُمُوعِ العِنَايَـةِ بأَيَّـامِي وَلَيالِيَّ هِي التي جَعَلَتِ الطَعَامَ حُلْوًا في فَمِي، وحَفَّتْ نَومي بـالوَحيِ والأَحلامِ الحُلْوَةِ؟



لأَجلِ هَذا أُبارِكُكُم مِن أَعماقِ قَلبي،

لأَنَّكُم تُعطُونَ كَثيرًا ولا تَعرِفُونَ أَنَّكُم تُعطُون شَيئًا.

الحقَّ أَقولُ لَكُم: إنَّ اللُطفَ الذي يَنظُرُ إلى ذَاتِه في مِرآةٍ يَنقَلِبُ حَجَرًا.

والعَمَلَ الصَالِحَ الذي يُسَمِّي نَفسَه بأسمَاءٍ جَميلَـةٍ يَـصيرُ وَالِـدًا للعنَةٍ كَريهَةٍ.



وقَد دَعَاني فَريقٌ مِنكُم مُتَوَحِّدًا، ثَمِلاً بِمَحبَّةِ وَحدَتي.

أَمَّا أَنتُم فقُلتُم بعضُكم لبَعضٍ: لا تُبالِغُوا في عَذْلِهِ ومَلامَتِهِ، فإنَّـه يُحِبُّ أَن يُؤَلِّفَ مجلِسَهُ مِن أَشجَارِ الأَحرَاجِ وليسَ مِن أَبناءِ الإِنسَانِ.

قُلتُم إنّه يَستَلِذُّ الجُلُوسَ على رُؤوسِ التِلالِ والنَظَرَ إلى مَدينَتِنا.

وإنّني بِالحَقيقَةِ قَد تَسَلَّقتُ التِلالَ ومَشيتُ في أَراضٍ بَعيدةٍ جِدًّا.

لأَنَّه كَيفَ أَمكَنَني أَن أَراكُم مِن غَيرِ أَن أَكُونَ في عُلُـوٍّ شَـاهِقٍ أَو بُعدٍ شَاسِعٍ؟

أَو كَيفَ يَستطيعُ أَحَدٌ أن يَكُون قَريبًا مَا لم يَكُن بَعيدًا؟

***

وغيرُكم مَن كانَ يُناديني، ولكِنْ بغيرِ الألفَاظِ، ويَقولُ لي:

«أَيُّهـا الغَريـبُ، أَيُّهـا الغَريـبُ المُتَعَـشِّقُ مَـا لا يُبلَـغُ إليـه مِـنَ الشَاهِقَات، لماذَا تَقطُنُ بَينَ قِنَنِ الجِبَالِ حَيثُما تَبني النُسورُ أَعشَاشَها؟

لماذَا تَسعَى إلى مَا لا سَبيلَ للحُصُولِ عَليه؟

أيُّ نَوعٍ مِنَ العَواصِفِ تُريدُ أن تَصطَادَ لشَبَكَتِكَ؟

ومَا هِيَ الطُّيُورُ الخَياليَّةُ التي تُفتِّشُ عَنهَا في السَماءِ؟

هَلُمَّ إلينَا، وكُنْ وَاحِدًا منّا.

اهبِطْ مِن عَليَائِكَ، وسَكِّنْ حِـدَّةَ مجَاعَتِـك بِخُبزِنَـا، وَأَخْمِـدْ لَظَـى عَطَشِك بلَذيذِ خمرتِنا»!

قَالوا هَذِهِ الأَقوَالَ كُلَّها في وَحدَةِ نُفُوسِهم.

ولَو كَانَت وَحدَتُهم أَعمَقَ ممَّا هِي لأَدرَكُوا أَنَّني لم أَكُنْ أَسعَى إلَّا إلى إدرَاكِ سِرِّ أَفراحِكُم وآلامِكُم.

ولَم أكُنْ أصطَادُ سِوى ذَواتِكُمُ الكُبرى السَائِرَةِ نَحوَ السَماءِ.

ولكِنَّ الصَيَّادَ قَد صَارَ صَيْدًا.

لأَنَّ كَثيرًا مِن سِهَامي لم تَترُكْ قَوْسِي إلَّا لِكَي تَرتَدَّ إلى صَدرِي.

والطَائِرَ قَد صَارَ زَحَّافَةً؛

لأَنَّني عِندَما بَسَطْتُ جَنَاحَيَّ في الشَمسِ صَارَ ظِلُّهما عَلَى الأَرضِ سُلحَفَاةً.

وأَنا المُؤمنَ صِرتُ مُرتَابًا؛

لأَنَّني كَثيرًا مَا وَضعتُ أُصبَعي في جَنبي، رَجاءَ أَنْ أَبلُغَ إلى كَـمالِ إيمَاني بِكُم ومَعرفَتي لحَقيقَتِكُم.

***

وبِهذَا الإيمَانِ وهَذِهِ المَعرفَةِ أَقولُ لَكُم:

إنَّكُم لستُم مَحصُورِينَ في سُجُونِ أَجسَادِكُم، كَلَّا، ولَستُم مُقَيَّدينَ بِجُدرَانِ بُيُوتِكُم وحُدُودِ حُقُولِكُم.

فإنَّ الذَاتَ الخَفِيَّةَ التي تُمَثِّلُ حَقيقتكُم تقطُنُ فَـوقَ الجِبـالِ وتَهـيمُ مَعَ الرِياحِ،

لأنَّها لا تَدُبُ إلى الشَمسِ مُستَدفِئَةً، ولا تَلمُسُ طَريقَها في الظُلمَةِ مُستَنْجِدَةً.

بَل هِي رُوحٌ حُرَّةٌ طَليقَةٌ تَكتَنِفُ الأَرضَ وَتَركَبُ دَقائِقَ الأَثِيرِ.

***

وإِن جَاءَتْ كَلمَاتي هَذهِ غَامِضَةً عَـلَى أَفهَـامِكُم فَـلا تَـسعَوْا وَرَاءَ إيضَاحِها.

فَإِنَّ الغُموضَ والسَدِيمَ هُما بَداءَةُ كُلِّ شَيءٍ لا نِهايَتُهُ.

وإنَّني بِمَلءِ الرَغبَةِ أَوَدُّ أَن تتَذَكَّروني كبَدَاءَةٍ.

والحَيَاةُ وجَميعُ الكَائِنَاتِ الحيَّةِ، إنَّما تَتَصَوَّرُ أولاً في الضَبَابِ وليسَ في البِلَّوْرِ.

مَنْ يَدري أَنَّ البِلَّوْرَ لم يَكُن ضَبَابًا مُتَجَمِّدًا؟

***

وهَذَا مَا أَوَدُّ أَن تحتَفِظُوا بِه مَعَ ذِكراي،

إِنَّ مَا يَبدُو لَكُم ضَعِيفًا مُتَضَعْضِعًا فِيكُم هُو أَقوى وأَثْبَتُ مَـا في كِيانِكُم.

لأنَّه أَليسَ لُهاثُكُم هو الذي يُقيمُ بُنيَانَ عِظامِكُم ويُشَدِّدُهُ؟

بَل أليسَ الحُلمُ الذي لَم يَحلُمْ به أَحدٌ مِـنكُم قَـطُّ هُـو الـذي بَنَـى مَدينَتَكُم وعَمِلَ كُلَّ مَا فِيهَا؟

فَلو كَانَ لَكُم أَنْ تَنظُروا مجَارِيَ ذَلكَ اللُهاثِ لَمَا كَانت لكُم حَاجَةٌ أَن تَنظُروا شَيئًا آخَرَ غيرَها.

وَلَو استَطَعْتُم أَنْ تَسمَعُوا مُناجَاةَ ذَلكَ الحُلمِ، لما كُتُم تَرغَبُـون في سَماعِ أيِّ صَوتٍ آخَرَ في العَالَمِ.

وَلكِنَّكُم لا تَنظُرُونَ ولا تَسمَعُونَ، وحَسَنًا تَفعَلُونَ.

فإنَّ الحِجَابَ المَسدُولَ عَلَى عُيُونِكُم، ستَرفَعُهُ اليَدُ التي حَاكَتْهُ.

والطِينَ الذي يَسُدُّ آذَانَكُم، ستَنتَزِعُهُ الأَصابعُ التي جَبَلَتْهُ.

وحِينَئِذٍ تُبصِرُونَ،

وحِينَئِذٍ تَسمَعُونَ.

بَيدَ أنَّكُم لَن تَتَحَسَّروا عَلَى أَنَّكُم كُنتُم عُميًا أَو صُمًّا.

لأَنَّكُم في ذَلكَ اليَومِ ستَعرِفُونَ المَقَاصِدَ الخَفِيَّةَ في كُلِّ شَيءٍ،

وستُبارِكُونَ الظُلمَةَ كَما تُبارِكُونَ النُورَ.

***

وعِندَمَا قَالَ هَذَا نَظرَ حَولَه، ثُـمَّ تَطلَّـعَ إلى البَحـر فَـرَأى سَـفينَتَه ورُبَّانَها مُنتَـصِبًا أَمـامَ الـسُكَّانِ، يَنظُـرُ تَـارةً إلى الأشرِعَـةِ وطَـورًا إلى البَحرِ.

فَقَالَ:

إنَّ رُبانُ سَفِينَتِي وَاسِعُ الصَدر جَزِيلُ الصَبر.

فإنَّ الريح تهبُّ بعنفٍ، والأَشرِعَة مُضْطَربةٌ،

حتَّى إنَ السُكَّانَ نفسَه يحتاجُ إلىَ مَن يُديرُهُ؛

ومَعَ كُلِّ هَذا فَإنَّ رُبَّانَ سَفينَتي يَنتَظِرُ سُكُوتي بِصَبْرٍ.

وهَؤُلاءِ الملاَّحُـونَ رُفَقَـائِي، الـذين سَـمِعُوا جَـوْقَ الْمُنْشِدِينَ في البَحرِ الأَعظَمِ يُصغُونَ إليَّ بطُولِ أناةٍ،

ولكنَّهم لن يَنتَظِرُوا لحظَةً وَاحِدةً بَعدُ.

فَإنَّني عَلَى أَتَمِّ الأُهبَةِ للسَفَرِ،

فَقَد وَصَلَ الجَدولُ إلى البَحرِ، وأُتيحَ للأُمِّ العَظِيمَةِ أن تَضُمَّ ابنَهـا إلى صَدرِهَا مَرَّةً ثانيةً.

***

فَالوَدَاعَ، الوَدَاعَ يَا أَبنَاءَ أُورفليس.

قَد غَرُبَتْ شَمسُ هَذَا اليَومِ،

وأَغلَقَ عَلينَا أَبوابَه كما تُغلِقُ زَنبَقةُ الغَوْرِ أَوراقَهَا عَلَى غَدِهَا.

فَكُلُّ مَا أُعطِينَاه هَهُنا سنَحتَفِظُ بِه.

وإذَا لم يَكُن كَافيًا لِسَدِّ حَاجَاتِنا، فإِنَّنا نَأتي ثَانيةً إلى هَذَا المَكَانِ مَعًا ونَمُدُّ أيدِينَا مَعًا لمن أعطَانَا أوَّلاً.

ولا تَنسَوْا أَنَّني سَأعودُ إليكُم مَرَّةً أُخرَى.

فَلن يَمُرَّ زَمَنٌ قَليلٌ حتَّى يُشرِعَ حَنيني في جَمع «الرَمـلِ والزَبَـد» لجسَدٍ آخَرَ.

قَليلاً ولا تَرَوْنَني؛ ولكِنْ، بَعدَ قَليلٍ تَرَوْنَني،

لأنَّ امرأةً أُخرَى سَتَلِدُني.

***

أُوَدِّعُكُم وَأُوَدِّعُ الشَبَابَ الذي صَرَفْتُه مَعَكُم.

فإنَّنا في الأَمسِ اجتَمَعْنَا كمَا في حُلمٍ.

قَد أَنشَدْتُم لي في وَحدَتي، وبَنَيْتُ لَكُم مِن أشوَاقِكُم بُرجًا في السَمَاء.

وَلكنَّ عَهْدَ النَومِ قَدِ انقَضَى، والحُلمَ قَد مَـضَى، وَلَـسنَا الآنَ عِنـدَ بُزُوغِ الفَجرِ،

لأنَّ الظَهيرةَ تَرقُصُ فَوقَ رُؤوسِنا، ويَقَظَتَنا النَاقِـصَةَ قَـد تَحَوَّلَـتْ إلى نَهارٍ كَامِلٍ، فَيَجدُرُ بِنَا أَنْ نَفتَرِقَ.

فإذَا جَمَعَنَا شَفَقُ الـذِكرىَ مَـرَّةً أُخـرَى فإِنَّنـا حِينَئـذٍ نَـتكَلَّم مَعًـا، وَحِينَئِذٍ تُنشِدونَ لي أُنشودَةً أَوقَعَ في النَفسِ مِن أُنشُودَةِ اليَوم،

وإنْ اجتَمَعَتْ أَيدِينَا في حُلمٍ ثَانٍ فَهُنَالِـكَ سَـنَبني بُرجًـا آخـر في السَماء.

***

وعِندَما قَالَ هَذَا أَشارَ إلى المَلاَّحِين إِشَارَةً تُؤذِنُ بِالـسَفَرِ، فَرَفَعُـوا مِرْسَاةَ السَفينَةِ في الحَالِ وَحَلُّوا حِبَالَهَا، وسَارُوا نَحوَ الشَرقِ.

فصَرَخَ الشَعبُ كُلُّه بصَوتٍ عَظيمٍ كما مِـن قَلْـبٍ وَاحِـدٍ، وتَعَـالى صُرَاخُهم في الشَفَقِ، فحَمَلَتْهُ دَقَائِقُ الهَواءِ فَـوقَ البَحـرِ كَأَنَّـه صَـوتُ بُوقٍ عَظِيمٍ.

أَمَا المِطْرَةُ العَرَّافَةُ فَكانَتْ صَامِتَةً وَحدَها، تُشَيِّعُ الـسَفِينةَ بِنَظَرِهَـا

حتَّى تَوارَتْ في الضَباب.

ثُمَّ تَفَرَّقَ الشَعبُ كلٌّ في سَبيلِهِ، بَيدَ أنَّها ظَلَّتْ وَحدَها وَاقفَةً عَلَى شَاطِئِ البَحرِ تُرَدِّدُ في قَلبِها كَلماتِ المُصطَفَى الأخِيرةَ:

«قَليلاً ولا تَرَوْنني، وقَليلاً وتَرَوْنني،

لأنَّ امرَأةٍ أُخرى سَتَلِدُني».

***

أسئلة

١) ما هي علاقة المصطفى بشخص جبران؟
٢) ما هو الشبه بين المصطفى ويسوع؟
٣) هل تجد بذورًا لبعض الأفكار في «النبيّ» زرعت في «دمعة وابتسامة»؟ أعطِ أمثلة.
٤) فسّر ما قصده بقوله: يا أبناء أُمي، يا من مطاياهم الأمواج والعواصف.
٥) هل صحيح أن الحب لا يدرك أقصى ما فيه من عمق إلا ساعة الفراق؟
٦) لخّص رأيه في الحبّ؟
٧) اشرح قوله: مثلما يكون الحب تاجًا يكون صليبًا؟
٨) ما معنى قوله عن الأولاد: ليسوا أولادكم؟
٩) هل تقرّه على رأيه في الزواج؟
١٠) ما هو العطاء المثالي؟
١١) كيف نصح المصطفى أن يكون العطاء؟
١٢) هل ترى رأي جبران في المأكل والمشرب؟
١٣) ما معنى قوله: أنا كذلك كرمة، وعناقيدي ستقطف وتحمل إلى المعصرة؟
١٤) ما هو العمل المقرون بالمحبّة في نظر جبران؟
١٥) اشرح قوله: إنما العمل محبّة كانت خفيّة فباتت للعيان؟

١٦) قال جبران إن الحزن والفرح لا ينفصلان؟ فماذا قصد بهذا؟
١٧) فسّر نظرته إلى البيوت؟
١٨) ماذا أخذ على أصحاب البيوت؟
١٩) ما معنى قوله: إن بيتكم هو جدكم الأكبر؟
٢٠) ماذا عنى بالثياب؟ أعطِ أمثلة.
٢١) هل تُقِرُّ ةالمصطفى على مفهومه للبيع والشراء؟
٢٢) فسّر نظرة المصطفى إلى الجريمة والعقاب؟
٢٣) أعطِ مثلاً على المسؤولية المشتركة بين المجرم والضحيّة؟
٢٤) هل أنت من رأى جبران في القانون كما فسّره المصطفى؟
٢٥) قارن بين نظرة «النبي» إلى الحرية، بنظرة جبران إليها في «عرائس المروج»؟
٢٦) هل ترى أن المصطفى يفضل العقل على الهوى أم العكس؟
٢٧) لخّص رأي المصطفى في الألم؟
٢٨) كيف صوّر المصطفى معرفة النفس؟ أعطِ أمثلة.
٢٩) هل أنت من رأي المصطفى في التعليم؟
٣٠) ما هي سبيل المعرفة الحقيقية؟
٣١) اشرح مفهوم «النبي» للصداقة؟
٣٢) ماذا أراد المصطفى بقوله: إنكم تتكلمون عندما ينقطع حبل الكلام بينكم وبين أفكاركم؟

٣٣) فسّر نظرة «النبي» إلى الزمان؟
٣٤) ما علاقة الزمن بالحبّ؟
٣٥) لماذا تكلم المصطفى عن الخير ولم يتكلم عن الشر؟
٣٦) لخّص مفهوم المصطفى للصلاة؟
٣٧) ما رأيك بالصلاة الجديدة التي أطلقها المصطفى؟
٣٨) هل يظهر في فصل الصلاة مبدأ وحدة الوجود؟
٣٩) كيف صوّر المصطفى اللذّة؟
٤٠) هل الجمال كما شرحه المصطفى يختلف عنه في «دمعة وابتسامة»؟
٤١) لخّص رأي المصطفى في الدين؟
٤٢) هل عبّر جبران عن مبدأ التقمّص في كلامه على الموت وكيف؟
٤٣) أعطِ بعض الأمثلة على الصور الرمزية التي يزخر بها «النبيّ»؟
٤٤) لماذا انتشر كتاب «النبيّ» انتشارًا فريدًا لم تعرفه كتب جبران السابقة واللاحقة؟
٤٥) هل ترى في «النبيّ» إنجيلاً جديدًا؟

***

الفهرس



WWW.ALMMARFA.COM

١ رمل وزبد & الموسيقى
٢ عرائس المروج
٣ الأرواح المتمردة
٤ الأجنحة المتكسرة
٥ دمعة وابتسامة
٦ المواكب & المجنون
٧ العواصف
٨ البدائع والطرائف
٩ السابق
١١ آلهة الأرض
١٢ التائه
١٣ مختارات من رسائل جبران





٢٠ ش عبد المنعم رياض - من ش حس
زهراء مدينة نصر - القاهرة
ت : ٠١٢٢٣٨٨٨٩٣٠ - ٣٣٣١٢٣٨
mail : almmarfa@yahoo.com
almmarfa@gmail.com

عبلين - الجليل - فلسطين
جوال : ٠٥٢٣٠٧٧٣٣٤ (٠٠٩٧٢)
٠٥٢٨٥٠٢٨٢٦ (٠٠٩٧٢)
فاكس: ٠٤٩٥٠٢٤٧٢ (٠٠٩٧٢)

